



الانتفاضة الفلسطينية تدخل سنتها الثالثة

بين الكف والمتلع

يتنوع عطاء الأرض حتى يصبح للحجارة موسم تُجمع فيه وتُنقى وتسمى بأساء كثيرة منها أساء التدليل، ذلك أن الصلة لابد مُفضية إلى عاطفة.

وإذا كانت مرحلة الجمع والالتقاط اتخذت زمناً أعقبه العصر الحجري، فإن الزمنين في يومنا هذا يندغمان. ثمة وقت كانت الحجارة فيه تتحول إلى أداة لغرض مجاني، وآخر كانت تنهياً فيه حتى النسق المبدع، فمكانة الربوبية، وقد آلت الآن إلى مراتب الإرادة والغايات. فلم يبق الحجر على صمته، فقد شرب بحماسة الشعر كله ونطق بتطلعاته بعد إذ خرج من بين الكف والمقلع.

وحيث أن مختلف عقائد العالم ومختلف أنظمة الوطن تحجم أو تناهض أو لا تنحاز لهذه القضية التي يُججَل وضوحها للجميع، فقد آن لهذا الوليد أن يترجل عن طفولته أو مراهقته، وأن يستكتب الحجر كل مطالبه ساخراً من كل شيءٍ وكائناً ضد من يكون!

والانتفاضة وسيلة من ليست له وسيلة.

وهاهي الانتفاضة تدخل عامها الثالث، ساجية كما بدأت. تقول الشعر وتتلو القصص، تبتكر اقتصادها على نحو مُحَدَث، وتصنع التعاون بأعجوبة، بعد ذلك تقدم الشهيد وتصمم تشييع جثمانه، وتصمم على المضي.

«البيان»



أشرا الانتفاضة على الثقافة الفلسطينية

بقام : خليل السواحري

خلال الأيام الأولى للانتفاضة، سأل أحد الصحفيين الأجانب طفلا فلسطينيا
ممن كانوا يرشقون جنود الاحتلال بالحجارة، قال الصحفي : ما الذي تتوقعون أن
تحققوه بهذه الحجارة؟

قال الطفل : بهذه الحجارة سوف نغير العالم!

هذه النبوءة أطلقها فلسطيني في الأسبوع الثاني للانتفاضة، ولا أدري إن كان

هذا الطفل ما يزال حيا ليرى أن كثيرا من جوانب نبوءته قد تحقق أو هو في سبيله إلى التحقق .

فها هي الانتفاضة ، في سنتها الثانية ، بدأت بتغيير العالم ، فعلا أنها تحاصر الضمير الانساني وتندق بيديها العاريتين كل الأبواب التي ظلت موصدة في وجه الصوت الفلسطيني طوال ما يزيد على أربعين عاما .

ها هي الانتفاضة تصعد قمة العالم وتدخل قلب التاريخ فعلا طازجاً ، تتعلم منه شعوب العالم اسلوباً جديداً في القتال ، تهزم فيه ذراع الانسان الاعزل كل آلات الحرب الدموية ، ويستطيع فيه الدم المسفوح أن يواجه أعنى الجيوش المدججة بأسلحة القتل والدمار والجريمة .

ها هي الانتفاضة أنشودة تلتف حول عنق «اسرائيل» وتحيلها يوما بعد يوم إلى شيء منبوذ ومثير للاشمئزاز ، شيء يبعث بكل قذارة ذلك النموذج النازي الكريه الذي ما تزال الذاكرة البشرية تحاول التخلص من اشباحه وكوابيسه .

لقد أصبحت الانتفاضة مصطلحا تشربه لغات العالم ، كلمة عربية جديدة تدخل قواميس الدنيا وثقافات الشعوب ، في حين يظل العجز العربي المعاصر عاجزا حتى عن استيعاب مضامين وأبعاد هذه الكلمة التي أطلقها الجرح الفلسطيني .

وإذا كانت الانتفاضة الفلسطينية تطمح إلى تغيير العالم ، فمن باب أولى أن تبدأ رياح التغيير بالهبوب على الإنسان الفلسطيني والعربي في الجوار المحيط ، وكيف لا يكون ذلك ، ورياح الانتفاضة قد بدأت تعصف فعلا بالكيان الصهيوني نفسه ، وتدفع بكثرته الكاثرة للالتفاف حول منابعه العنصرية الهمجية الأولى ، وتدفع بالأقل القليل منه نحو التعقل والتبصر ، والتسليم بأن المخرج الوحيد من أزمة المصير اليهودي ، يكون فقط بالاعتراف بالحق الفلسطيني وتدارك الأمور قبل فوات الأوان ،

لقد هزت الانتفاضة بعنف جدار الطمأنينة الصهيونية المستسلمة لأكاذيبها وأوهامها ، وفتحت أمام العالم ، ومن جديد ، ملف المصادرة الاسرائيلية لفلسطين ، اسما وتاريخا وجغرافية وشعبا ، وعجلت بتفجير أزمة الوجود والاستمرار لهذا الكيان

الاغتصابي ربما قبل عقدين أو أكثر من الموعد الذي كان متوقعا حدوث التفجير الديمقراطي الفلسطيني فيه .

ومع ذلك يظل الأثر الأهم والجذري للانتفاضة ما أحدثته في الإنسان الفلسطيني الذي فجر الانتفاضة فأعادت بدورها تفجيريه وصياغته، وجعلت منه إنسانا جديدا قادرا على الانتقال بها من طفرة العفوية إلى مرحلة السلوك اليومي، من «الثورة الآنية» إلى النمط السلوكي الثابت والمتزن والمتصاعد .

الانتفاضة والتغير

هذه الدراسة هي محاولة أولية لإلقاء الضوء على أنماط التغير التي أحدثتها الانتفاضة في الثقافة الوطنية الفلسطينية في مختلف جوانبها، ادراكا وسلوكا .

ولا بد قبل الشروع في استعراض هذه التغيرات من الإشارة إلى أن الثقافة «أية ثقافة» هي مجموعة الأنماط الفكرية والسلوكية لمجتمع ما^(١)، إنها الوجدان الشعبي أو الحياة الروحية لهذا المجتمع، وفي زمن التحديات الكبرى، كهذا التحدي الحضاري الذي يعيشه الشعب الفلسطيني، تصبح الثقافة ذلك الإطار الوجداني الذي ينتظم أفراد الأمة ويوجه سلوكهم باتجاه المحافظة على الذات الحضارية، وكل ما يمت إليها بصلة، من التاريخ والجغرافيا والعادات والتقاليد، من الموروث الفولكلوري المادي والمعنوي ومن الإبداع الثقافي الجديد لشعراء الأمة وفنانيها ومبدعيها .

في التحديات الحضارية الكبرى التي تنبثق عنها ردود فعل عظيمة كالانتفاضة، تتمحور الأمة حول ذاتها لتفرز أعظم ما تخرزنه من طاقات، وتتخلص في المقابل من معظم الشوائب التي يمكن أن تعيق حركتها، هكذا تغدو الانتفاضة ابداعا حضاريا عربيا، يتجاوز كل الرموز التبسيطية التي أحاطت بها، كالحجارة والمقاليع وقنابل المولوتوف وما إلى ذلك من تسميات، ارتاح لها الضمير العربي والعالمي، وكأنه يريد بذلك أن يعفي نفسه من مهمة الغوص إلى أعماق الظاهرة .

الانتفاضة في حركتها المستمرة والمتصاعدة انجاز حضاري لم يستطع قادة

الكيان الصهيوني، عساكر وسياسيون، إدراك أبعاده الحضارية وآفاقه الثقافية ومراميه القومية، ومن هنا تواصلت تصريحاتهم ووعودهم بالقضاء على الانتفاضة، مما جعلهم مسخرة للعالم وموضعا للهزء والتندر حتى من اليهود أنفسهم.

إن العلاقة بين الانتفاضة وثقافتها علاقة جدلية، بكل ما تنطوي عليه هذه الكلمة من مدلولات، فإذا كانت الثقافة الوطنية الفلسطينية المقاومة قد مكنت للانتفاضة من الوقوف على قدميها وتصلبها، وبالتالي استمرارها في التصدي والمواجهة، فإن الانتفاضة نفسها خلقت في المقابل أنماطا ثقافية ثورية جديدة لم تكن قائمة قبل الانتفاضة، وإن كانت جذورها، الأولى قد بدأت في التشكل من جراء عشرين عاما أو أربعين عاما من محاولات المصادرة والتغيب والتدمير.

في ثقافة الانتفاضة يصعب الفصل بين الثقافي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي، يصعب الفصل بين الأغنية الثورية التي ترافق انطلاقا الحجر، وبين حركات السواعد وهي تقذف بالحجارة وتزداد قوة وصلابة بالأغنية الثورية. في ثقافة الانتفاضة يصعب الفصل بين إيقاع القصيدة التي تمجد الشهادة وبين إيقاع البيان السياسي لقيادة الانتفاضة وهو يحدد المطالب ويضع النقاط على الحروف.

ومع ذلك فسوف نحاول فيما يلي أن نحدد، ولو بشكل مصطنع، بعض التخوم المتباعدة لإيقاعات التغيير الثقافي الذي حدث بالانتفاضة، وما يزال يحدث ويتجذر، وسوف نجمل هذه المتغيرات في المستويات الرئيسية التالية:

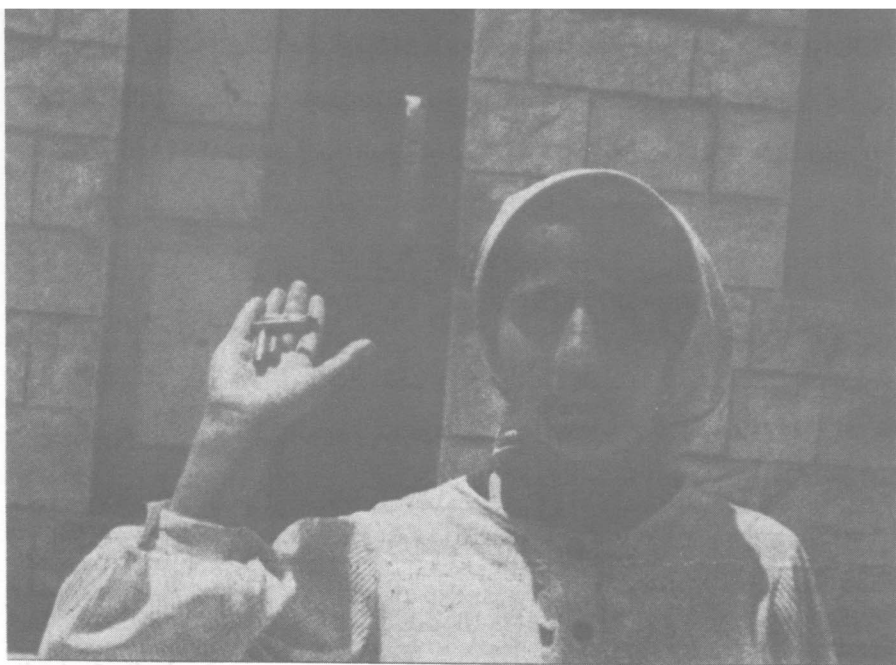
أولا: المستوى الاجتماعي:

تعتمد إعطاء الأولوية للحديث عن هذا المستوى لأنه يمثل التجسيد الحي المسلكي واليومي للتغيرات الثقافية التي أدخلتها الانتفاضة على حياة الإنسان الفلسطيني، في المنزل والشارع والحي، في القرية والمخيم والمدينة، في اللجان الضاربة أو لجان الحراسة أو اللجان الاجتماعية، ويمكن اجمال هذه التغيرات على النحو التالي:

١ - الانتفاء الوطني والانتفاء العائلي : كان اعدام اهالي قباطية / جنين لمحمد العياد (أحد عملاء الاحتلال) يوم ٢٤ شباط ١٩٨٨ أحد المؤثرات المهمة على دخول الانتفاضة مرحلة جديدة من مراحل التحول الاجتماعي باتجاه تغليب الوطني على العشائري ، وإذا كان بعض الباحثين ^(٢) قد رأوا في عملية قباطية بداية لتفكيك مؤسسة الاحتلال المحلية ، فإنني أرى فيها معنى آخر ، هو بداية تفكيك المؤسسة العشائرية والعائلية حين تتصادم هذه المؤسسة مع المؤسسة الوطنية ، ولا أحد ينكر أن مسألة تصفية العملاء والمتعاونين مع الاحتلال كانت تتم في المجتمع الفلسطيني طوال الفترة السابقة على يد مجهولين تحاشيا للمضاعفات العشائرية التي يمكن أن تنجم عنها ، ولكنها في عملية قباطية تمت في وضوح النهار وعلى يد جماهير القرية كلها ومثل ذلك تم فيما بعد مع عملاء آخرين .

وليس ذلك فقط ، ولكن اندحار المؤسسة العشائرية العائلية في مواجهة المؤسسة الوطنية يعني من جانب آخر أن ثمة سلطة جديدة أو اطارا جديدا للسلطة قد بدأ يبرز في القرى خاصة وفي سائر أنحاء الوطن الفلسطيني عامة ، وتمثل هذه السلطة في اللجان الشعبية بأنواعها التي بدأت تشكل تدريجيا نواة سلطة وطنية ثورية جديدة ، حلت محل السلطة المحلية القديمة التي كان يمثلها المخاتير والوجهاء ، أو النوادي والجمعيات والنقابات ، وما يميز السلطة الوطنية الثورية الجديدة المثلة في اللجان الشعبية عن الاطر السلطوية التقليدية السابقة اتساع إطارها التمثيلي ليشمل مختلف الفئات الاجتماعية الفاعلة في الانتفاضة (العمال والفلاحون والطلاب والبورجوازية الصغيرة) وقدرتها على الحركة والفعالية باعتبارها سلطة غير علنية ذات أهداف نضالية وطنية (إزالة الاحتلال أو جعل التعايش معه غير ممكن) وليس مطالب اصلاحية اجتماعية أو ديمقراطية في ظل الاحتلال .

٢ - مثل هذا التطور الايجابي في تغليب الوطني على العائلي كان قد واكب الانتفاضة منذ بداياتها الأولى ، وتمثل في تراخي سلطة الآباء والأمهات عن الأبناء وتمرد الأبناء على هذه السلطة حين تتعارض مع متطلبات العمل الوطني . لقد اندحرت السلطة الاجتماعية التقليدية بكل أبعادها لصالح السلطة السياسية ، وحلت



العلاقات الأفقية محل العلاقات العمودية في مجتمع الانتفاضة، ذلك يعني أن سلطة الأب بدأت تتراجع أمام سلطة التنظيم أو سلطة اللجان الشعبية، فليس ثمة أب أو أم يمكن لهما، لو قصدا، ولا أعتقد أن أحدا من الآباء والأمهات يمكن أن يقصد الآن، ردع الابن أو البنت عن المشاركة في فعل الانتفاضة.

وقد كان لهذا التطور دلالاته الكبيرة، وانعكاساته على مجمل الأوضاع النفسية والاجتماعية وبالتالي على السلوك اليومي لأبناء الانتفاضة، وقد حاولت وكالة الصحافة الفرنسية في التقرير الذي وزعته يوم ١٥ آذار ١٩٨٩ تحت عنوان «الانتفاضة تقتحم أحلام الأطفال الفلسطينيين»^(٣) أن تشير إلى جانب من جوانب هذا التغيير، وتقول الوكالة على لسان د. يوسف الناشف (أحد علماء النفس الفلسطينيين): «لقد أصيبت السلطة الأبوية بالضعف فالأطفال الفلسطينيون يشعرون الآن بأنهم متروكون لأنفسهم، وهم يواجهون بمفردهم الجنود المسلحين، ولم يعد المنزل والمدرسة على هشاشتهما الراهنة (في ظل الاحتلال) يشكلان خلية

الحماية التي يلجأ إليها الأطفال» كما تظهر إحدى الصور التي اختارتها الوكالة الصحفية الفرنسية ضمن مجموعتها لعام ١٩٨٨ أما فلسطينية من رام الله تحاول تخليص ولدها (١٠ سنوات) من أيدي الجنود الإسرائيليين، بينما تنطق عينا الطفل بكل معاني الاستنجد وطلب الحماية.

إن تراخي سلطة الأب ليست هي السبب في فقدان الأطفال لحماية وشعور الأمان، فالآباء والأمهات في ظل القمع الهمجى الصهيوني الراهن عاجزون حتى عن حماية أنفسهم، يقول د. يوسف الناشف «يحلم الطفل الفلسطيني بأن جنديا إسرائيليا يقتحم عالمه بعنف ليحطم ألعابه ويضرب والده»^(٤).

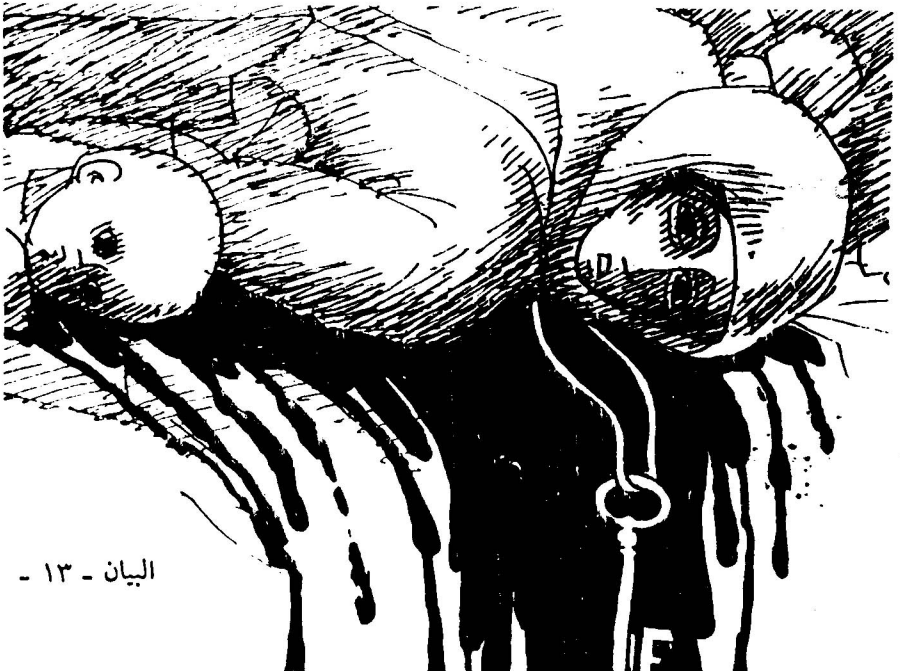
ومع ذلك فإن مشاركة الأطفال الفلسطينيين في الانتفاضة تتخلص يوما بعد يوم من شكلها العفوي لتأخذ شكلا منظما في إطار اللجان الضاربة.

٣ - وقد نجم عن اندحار السلطة الاجتماعية التقليدية في مواجهة السلطة السياسية والتنظيمية تغير جوهري آخر يتمثل في تحرر المرأة الفلسطينية من السلطة العائلية، وانخراطها في العمل الوطني، وبدرجة أكثر حميمية واتساعا، مثل هذا التطور يمكن ملاحظته بكل بساطة في المشاهد اليومية للانتفاضة التي تنقلها شاشات التلفزيون في مختلف أنحاء العالم وتبدو فيها النساء الفلسطينيات، الطالبات والفلاحات وربات البيوت وحتى العجائز وهن يقمن بفعل الانتفاض على أنواعه بدءاً من التظاهر ورفع الأعلام والهتاف في المسيرات والجنازات وانتهاء بنقل الحجارة والإطارات ورمي الجنود.

وقد تنبّهت لهذه الظاهرة بيتا لبمان، ففي كتابها المعنون «إسرائيل: الأرض القلعة»^(٥) والذي جوبه بسخط ونقمة الإسرائيليين تقول: لقد أثارت المرأة الفلسطينية دهشتي، هذه المرأة التي اعتدنا «على رؤيتها باكياً وراء الخيام أو حاملة (لبقج) الثياب على رأسها أصبحنا نراها اليوم وهي تتصدى للجيش وتقذفه بالحجارة» لقد وجدت المرأة الفلسطينية نفسها مسوقة للانخراط في الانتفاضة، حتى لو لم تشأ ذلك، فغياب الزوج أو الأخ أو الابن عن البيت بسبب الاستشهاد أو

الاعتقال أو تهشيم العظام أو العاهة المستمرة جعلها تخرج للعمل البديل بدءاً من تسيير شؤون العائلة وانتهاء بالمشاركة في الحياة الاجتماعية والوطنية^(٦) كما وجدت المرأة نفسها تقف في أتون الانتفاضة جنباً إلى جنب مع الرجل تنقل له الحجارة أو الأطنارات أو تهجم على جنود الاحتلال لتخليص الأطفال أو الفتيان الذين يحاولون اعتقالهم، وباختصار لقد رفعت الانتفاضة من منزلة المرأة وأسقطت عنها الكثير من القيود وجعلتها تقف إلى جانب الرجل، وخاصة في القرى، حيث تقوم بكل ما يقوم به الرجال.

ومع ذلك فإن تحرر المرأة من سطوة الوضع الاجتماعي السابق وانخراطها في فعل الانتفاض، لا يعني تحررها النهائي من إطار الأسرة التقليدي، وهي وإن خطت الخطوة الأولى نحو فضاء العمل السياسي والمواجهة مع جنود الاحتلال في شوارع القرى والمخيمات إلا أنها ما تزال بشكل عام رهينة أنوثتها، خاصة وإن حوادث اعتداء واغتصاب قد تمت من قبل جنود الاحتلال والمستوطنين في أكثر من سجن وأكثر من مكان في الأراضي الفلسطينية المحتلة، وهو الأمر الذي حدا بالنساء الفلسطينيات في الناصرة إلى تنظيم مظاهرة للتنديد بحوادث الاغتصاب التي يمارسها الجنود الإسرائيليون ضد النساء الفلسطينيات في السجون والمعتقلات والأماكن الأخرى^(٧).



قيم اجتماعية جديدة

٤ - القيم الاجتماعية الجديدة: ثمة قيم اجتماعية جديدة ما يزال فعل الانتفاضة يبلورها ويحسدها رغم قصر الفترة الزمنية، ورغم أن مثل هذه القيم كانت تحتاج إلى سنوات طويلة، في الظروف العادية، لبلورتها واحلالها محل القيم الاجتماعية البائدة، ويمكننا حصر هذه القيم ضمن نمطين رئيسيين هما:

أ - قيم سلبية يتم الغاؤها والتخلص منها تدريجيا.

ب - قيم إيجابية كانت موجودة مع وقف التنفيذ وتم احيائها وتطويرها.

وسنضرب فيما يلي بعض الأمثلة:

أ - من القيم السلبية التي تم الغاؤها والاستعاضة عنها بقيم جديدة بديلة، الفردية في العمل الوطني أو الاجتماعي، لقد قضت الانتفاضة على الفردي واحلت محله الجماعي، لا أحد يتحدث عن الأفراد أو عن الأحزاب أو عن الفئات الاجتماعية، لقد غلبت الانتفاضة الجماعي على الفردي، فلم يعد الحديث ممكنا عن الأحزاب أو الأفراد أو حتى الفئات الاجتماعية أو الدينية، الحديث يدور الآن عن اللجان لا الأفراد، عن اللجان لا الأحزاب، عن القرى والمخيمات كم قدمت من الشهداء (في مجال التسابق والتفاخر) وليس عن الشهداء أنفسهم - رغم ما يستحقه الشهداء من الحديث - لقد تلاشت ظاهرة النجومية في العمل الوطني حتى عن الشهداء. وهكذا حلت الروح الجماعية المطلقة محل الفردية والحزبية والطائفية الضيقة، يقول مصطفى الكرد في إحدى أغنياته للانتفاضة:

لا تقلي أيا تنظيم

ولا تسألني عن ديني

أنا ترابة من هاالأرض

اسمي عربي فلسطيني

تلك هي إحدى القيم التي كرستها الانتفاضة وكرست هي بدورها الانتفاضة وأمدتها بصلابة الروح وجعلتها غير قابلة للانكسار أمام العنف الهمجى الإسرائيلي،

ولعل هذه القيمة أن تكون واحدة من الأسرار الكبرى التي تقف وراء مارذ الانتفاضة وتمده بالزخم والدم والكبرياء .

ومن القيم السلبية التي تم استبدالها بقيم جديدة كل العادات والحواسي المتعلقة بالزواج فقد ألغت الانتفاضة عادة المهور وكل مظاهر الاحتفال بالزواج وما كان يشوبها عادة من بذخ واسراف وتباه اجتماعي ، بل لقد تحولت الأفراح كما تحولت من قبل الجنازات ، إلى مناسبات وطنية تتردد فيها الأناشيد والأغاني والأزجال الوطنية التي تمجد الأرض والشهيد وتحرض على الاحتلال والمحتلين .

ومن القيم السلبية التي تم إلغاؤها واستبدالها بقيم جديدة نبذ النمط الاستهلاكي ومحاربة التباهي الاستهلاكي وتجميل وتمجيد التقشف والعودة إلى الأرض والاقتصاد المنزلي ، الحطب والنار للطبخ والتدفئة وحتى للإنارة بدلا من أفران الغاز والتدفئة المركزية والكهرباء ، واستنبتت الأرض للطعام الضروري بدءا من رغيف الخبز وانتهاء بلحوم الدجاج والأرناب ، ولم يكن غريبا أن تتوجه الانتفاضة إلى الناس بمنشورات تثقيفية تعلمهم فيها العودة إلى الحياة البدائية الأولى حياة الآباء والأجداد الذين كانوا يأكلون مما يزرعون ويلبسون مما ينسجون ، هذه الروح الجديدة هي الكفيلة بتصليب عود الانتفاضة وجعل مجتمعا قادرا على مواجهة غول الاستهلاك وروحته المدمرة ، يقول مصطفى الكرد في إحدى أغنياته للانتفاضة :

حجر وبصلة وسطل مي زادي وزوادي صاروا معاي
مات الخوف ودفنته بأيدي وبدي بنارك ياللا ياخي

ومن العادات والقيم التي تم إلغاؤها النزعات الفردية أو العشائرية أو اللجوء إلى المحاكم لحل هذه النزاعات ، لقد قضت الانتفاضة كما سبق أن أشرنا على العصبية العائلية والعشائرية ، ثم أحجم جمهور الانتفاضة من تلقاء نفسه عن التوجه إلى المحاكم لحل النزاعات فيما بين أفرادها يؤكد ذلك انخفاض نسبة القضايا الجزائية في محاكم الضفة الفلسطينية بحوالي ٧٠٪ وانخفاض نسبة القضايا المدنية بحوالي ٦٠٪^(٨) وذلك يعني أن روح الانتفاضة امتصت حتى الخلافات المحتملة بين الأفراد وقلصتها إلى الحد الأدنى .

وفي هذا الصدد لا نملك احصائية محددة عن نسبة هبوط حالات الطلاق أو نسبة ارتفاع حالات الزواج، وإن كانت الأخيرة قد زادت بطريقة مثيرة للانتباه نظرا، للعوامل التي سبق أن أشرنا إليها.

ب - من القيم الإيجابية التي كانت موجودة مع وقف التنفيذ (تقريبا) وتم إحيائها وتطويرها هذه الروح الجديدة من التعاون والتعاقد والتكافل، يقول أحد الباحثين^(٩) ان الانتفاضة قد طورت عادة الفرقة «ووين راحوا النشامى» والعونة وجعلت منها قيمة اجتماعية يومية تتجلى في أكثر من مناسبة، ف لجنة الإغاثة الاجتماعية في مخيم شعفاط مثلا عجزت عن توزيع سيارة من الخضراوات على بيوت المخيم لأن أصحاب هذه البيوت كانوا يرفضون أخذ الخضار قائلين لدينا منها أعطوا من لا يملك، وكل بيت كان يقول للجنة نفس الكلام^(١٠) ومن هذه المظاهر أن تهرع امرأة ما لإنقاذ طفل يحاول جنود الاحتلال اعتقاله بدعوى أنه ابنها حتى اضطرت سلطات الاحتلال لاعتقالها انها أم محمد أم الجميع، ومن ذلك إيواء الأسرى في القرى والمدن والمخيمات للشباب المطاردين والادعاء بأنهم أبناء هذه الأسر، ومن ذلك أن يهب الجميع رجالا ونساء لتقديم العون والإغاثة للجريح أو لأصحاب المنازل المنسوفة وإيوائهم أو حمل الشهداء والسير في جنازاتهم بطريقة تتحول معها الجنازة إلى مظاهرة حاشدة، أو اصرار الجميع على زيارة الجرحى في المستشفى أو مواساة أمهات الشهداء وذوهم أو قيام اللجان الشعبية بتقديم الأقفال المجانية لأصحاب المحلات التجارية التي كان جند الاحتلال يقومون بخلعها وفتحها عنوة، وكانت هذه اللجان تقوم بإغلاق المحلات المفتوحة أو تنظيم الحراسة عليها حين يتم إغلاقها، الأمر الذي أشاع لدى المواطنين روح الاطمئنان على بيوتهم وأموالهم وهو الأمر الذي كان مفقودا قبل الانتفاضة.

ومن ذلك قيام أصحاب العقارات بتخفيض أجرة عقاراتهم (منازل أو محلات تجارية) بنسبة ٢٥٪ وقيام المستأجرين في المقابل بدفع الأجور المترتبة عليهم دونما ممانلة، ومن ذلك أيضا قيام أصحاب العمل العرب باستيعاب العمال (قدر طاقاتهم) وتثبيت الأجور والرواتب الشهرية وفقا لأسعار التداول وكما تقرره قيادة

ومن ذلك هذه الروح الانضباطية الشاملة التي سادت مختلف المجالات والمرافق وفقا لتعليمات الانتفاضة : فالتجار يفتحون محلاتهم التجارية ويغلقونها وفقا لما تقرر الانتفاضة واللجان الشعبية، والمرافق كلها تلتزم بالاضراب الذي تقررته بيانات الانتفاضة والعمال العرب لا يذهبون إلى مرافق العمل الإسرائيلية، وحركة المواصلات تتوقف تماما دونما رقيب، وخدمات الإغاثة والإسعاف والتعليم تقدم وفقا لما تقرر الانتفاضة ودونما تمييز بين الفئات الاجتماعية أو الطائفية، ذلك كله يؤشر على مدى النضوج الذي وصلت إليه روح الانضباط الشعبي، وعلى مدى التلاحم الاجتماعي والوطني بين مختلف الفئات والاحساس العالي بالمسؤولية، ذلك الاحساس الذي يدفع بالمعلمين والمعلمات إلى فتح بيوتهم لتدريس التلاميذ ما دامت مدارسهم مغلقة، ويدفع بالمدرس الجامعي إلى السفر أكثر من مرة في الأسبوع من رام الله إلى غزة ليعطي دروسا مجانية لطالب جامعي فرضت عليه سلطات الاحتلال الإقامة الجبرية، وهو بعينه ما يدفع الأسر ذات المنازل الفسيحة إلى التبرع ببعض غرفها لإيواء العائلات التي نفس الاحتلال بيوتها.

مثل هذا التكافل الاجتماعي الطوعي لم يعرفه تاريخ المجتمعات العربية أو الإسلامية فيما أعلم عبر كل فترات التاريخ، إنه وهج الانتفاضة وإشراقها، وقيمها المضيفة التي غيرت حتى الآن المجتمع الفلسطيني في الداخل ووضعت على أعتاب مرحلة جديدة يصنع فيها مجتمع الانتفاضة ثقافته الوطنية وسلوكه الاجتماعي والسياسي، وقيمه النضالية الباهرة.

سقوط الأوهام

ثانيا : حين يتداخل السياسي في الثقافي :

في مسرحية « البلاد طلبت أهلها » التي كتبها عبداللطيف عقل عن الانتفاضة، يقول « أبو العز » في مونولوج يتصور أنه يخاطب به « الحاجة حليلة » التي كانت قد طلبت منه قبل مغادرته أم الزيتون (فلسطين) إلى بلاد العرب أن يحضر لها معه دواء

للروماتيزم يقول أبو العز: شو بدي أقول لمحرم وعويس وحسن أبو علي وجفرا، وأنا منيش حزنان إلا على الحاجة حليلة لما تقلي جبت دوا لها رومترم اللي يضرب في ركيي مثل مشاهيب النار، بس معلش بدي أفلها ما في لوجع رجليك دوا برا يا حاجة حليلة، ارجعي اغلي حلبة ودهني فيها رجليك ما فش لوجعك دوا برا، دواك في أم الزيتون!!^(١٢).

وقد ذهب معظم الذين بحثوا عن الشراة التي فجرت الانتفاضة إلى الاعتقاد بأن «سقوط الأوهام» كان واحدا من هذه الأسباب، إن لم يكن السبب الرئيسي، وسقوط الأوهام يعني أن أحدا في الأرض المحتلة لم يعد يعلق ولو ذرة من الأمل على إمكانية أن يأتيه الخلاص من خارج فلسطين المحتلة، سقط الأمل في أن تأتي جيوش العرب لتحرير فلسطين، وسقط الأمل في أن يتمكن العمل المسلح الفلسطيني من تحرير الأرض بعد ما حدث في لبنان عام ١٩٨٢.

سقطت الأوهام فكانت الانتفاضة، وكانت بياناتها ذات الديباجة السهلة والطروحات الواضحة، كانت شعاراتها نموذجاً للواقعية السياسية وكذلك مطالبها اليومية القابلة للتنفيذ.

على الصعيد السياسي كانت الطروحات واضحة لا لبس فيها: حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني، وإقامة الدولة الوطنية المستقلة، منظمة التحرير هي الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني، لا لاستمرار الاحتلال والاستيطان، لا لكل المشاريع التصفوية الأخرى.

هذا السقف السياسي، جرى التعبير عنه ببساطة وواقعية ووضوح، أما المهام التي كانت تطلبها قيادة الانتفاضة وتتوسل بها للوصول إلى غاياتها أو إلى الحد الأدنى الذي تستطيع مقارنته من هذه الغايات، وهي تكبيد الاحتلال أكبر قدر ممكن من الخسائر، وتحويل المناطق المحتلة إلى جحيم أمام المحتلين والمستوطنين، وجعل التعايش مع الاحتلال أمراً صعباً أو مكلفاً إلى أبعد الحدود، هذه المهام حرصت قيادة الانتفاضة على توفير القدر الأكبر من المصداقية لها وجعلها ممكنة التنفيذ حتى ولو بثمن باهظ.

وهكذا فإن الأهداف الواضحة والمهام الواقعية القابلة للتنفيذ والأسلوب الواضح في تقديم كل ذلك للناس في البيانات المتتالية، كانت إحدى العوامل الحاسمة في تمكين الانتفاضة من الاستمرار، وفي تمكين قيادتها (القيادة الوطنية الموحدة) من الإمساك بدفة القيادة والسيطرة على زمام الأمور.

إن قراءة متأنية لبيانات الانتفاضة تؤكد أن ثمة تداخلا كبيرا بين السياسي والثقافي فيها، بين القدرة على طرح البرنامج السياسي الواضح والقدرة على وضع المهام القابلة للتنفيذ، والقدرة على إيجاد القواسم المشتركة وتحقيق الإجماع الوطني حول كل ذلك، وبالتالي ضمان الالتفاف الجماهيري في الانتفاضة وحول قيادتها.

ولقد أدى ذلك كله، وعلى الصعيدين السياسي والاجتماعي، إلى ردم الهوة بين النظرية والسلوك، بين الفكرة والفعل، بين القيمة والممارسة لقد تلاشت المسافة، في مجتمع الانتفاضة بين القول والفعل وبين القيم والسلوك، وأية مصداقية يمكن أن تكون أعظم من ذلك؟

هكذا حافظت قيادة الانتفاضة على توازن شعاراتها السياسية وواقعيتها، كما حرصت في الوقت نفسه على جعل مطالبها قابلة للتنفيذ، وتراجعت في الوقت المناسب عن المطالب التي تبين لها صعوبة تحقيقها أو عدم قدرة الجماهير على الالتزام بها، ومن ذلك على سبيل المثال ما حدث في الدعوة للعصيان المدني ثم التراجع عنه والاكتماء بتطبيق بعض جزئياته.

ثالثا: في القضية الثقافية :

يقول أحد الباحثين الفلسطينيين في تفسير الظواهر الثقافية الجديدة التي أفرزتها الانتفاضة^(١٣): إن المرحلة الراهنة في المناطق الفلسطينية المحتلة هي مرحلة صياغة ثقافة وطنية جديدة، مرحلة تبلور معالم مجتمع الانتفاضة وهو المجتمع الذي يختلف وسيختلف كثيرا عن مجتمع سنوات الاحتلال العشرين الماضية.

وليس من الصعب على الباحث أن يميز الملامح الثقافية الجديدة لمجتمع الانتفاضة، وهي ملامح تختلف كثيرا أو قليلا عن ملامح مجتمع الاحتلال (مجتمع ما

قبل الانتفاضة) وتختلف جذريا ونهايا عن ملامح المجتمع العربي في الجوار. من هذه الملامح:

١ - الشجاعة في مواجهة الموت، وقد يسميها البعض اندحار الخوف أو سقوط حاجز الخوف أو سقوط الهالة المرعبة التي خلقتها الهزائم العربية حول الجيش الإسرائيلي من جراء انتصاراته المتوالية.

سقوط هالة الرعب عبر عنه عبداللطيف عقل في مسرحية «البلاد طلبت أهلها» بقوله: إلنا أربعين سنة خايفين، قتلونا واحنا خايفين، سرقوا الأرض والميه واحنا خايفين، ومن عشرين سنة وهم يذلوا فينا واحنا خايفين، شو سوالنا الخوف.. بس لو إنكم ما خفتوش من أربعين سنة يا عم أبو العز كان ما صار الي صار^(١٤). ويقول مصطفى الكرد في إحدى أغنياته للانتفاضة:

الخوف الي كان غول كبير

طفا وتجر وظلم كثير

كسر الخاية ودلق الزيت

مات ودفتته بإيدي ياخي

بإيدي ياخي.

كان سقوط حاجز الخوف هو حجر القبان الذي أربك حسابات العسكريين الإسرائيليين، فقد كشف شباب الانتفاضة بحجارتهم عورة المؤسسة العسكرية الإسرائيلية ليس أمام العالم فحسب ولكن أمام الإسرائيليين، وفي أعياق العسكر اليهود أنفسهم، فالجندي الإسرائيلي كما بدا على شاشات التلفزيون، لم يجد غضاضة في الاختباء أو الهرب أمام الحجارة، والأطفال والشبان الفلسطينيون يواجهون الرصاص بحجارتهم وهم يعلمون أن الحجارة لا يمكن أن تواجه الرصاص وأن الموت محتمل في كل لحظة وذلك هو ما يحدث فعلا كل يوم.

سقوط حاجز الخوف لم يتم فجأة ودونما مقدمات، فتجربة عشرين عاما مع جنود الاحتلال كشفت للإنسان الفلسطيني في الداخل هشاشة الجندي الإسرائيلي



وخواه، وزيف الهالة التي أحاطته بها الانتصارات الوهمية في حروب لم يخضها ولم تحارب فيها الجيوش العربية، حدثني الصديق محمد البطراوي^(١٥) أن ثلاثة من الشبان العرب كانوا يسيرون على رصيف المشاة في أحد شوارع رام الله - قبيل الانتفاضة بأشهر - وبدا في مواجهتهم على الرصيف نفسه ثلاثة جنود إسرائيليين: يقول البطراوي إن الشباب العرب همسوا فيما بينهم بأنهم لن ينزلوا عن الرصيف وأن الجنود هم الذين يجب أن ينزلوا حين يتقابل الطرفان، وذلك هو ما حدث.

هذه الحادثة الصغيرة لها مدلولها، لقد كان حاجز الخوف قد سقط قبل الانتفاضة، ولكن سقوطه النهائي والعلني تم إبانها وذلك في اعتقادي هو نصف الانتصار.

٢ - هاجس الاستشهاد: انعكس «سقوط حاجز الخوف» إيجابيا على فعل الانتفاضة، وتكرست من جرائه هذه الروح الإستشهادية العظيمة التي تلف الآن سماء الوطن المحتل من جنوب الانتفاضة إلى شمالها، وتجلل بهيبتها كل المخيمات

والقرى والمدن هناك، لقد أصبح الاستشهاد شرفا يطلبه كل فرد، ووساما تحاول نبيله كل أسرة، أصبحت أم الشهيد نجمة الوطن وأصبحت الشهادة طائرا يحلق فوق كل حي ويدخل كل بيت ومع أن الاستشهاد هو الاستشهاد والشهادة هي الشهادة في كل العصور والأزمان، إلا أن شهداء الانتفاضة ليسوا ككل الشهداء، لأنهم أفضل الشهداء فالشهيد المسلح بالحجر في مقابل الرصاصة لا يمكن أن يتساوى فضله مع الشهيد الذي يخوض مع الخصم معركة متكافئة السلاح أو شبه متكافئة.

وفعل الشهادة لم يعد حادثا مدهشا لقد أصبح خبزا يوميا، وروح الاستشهاد لم تعد قيمة إيجابية يتحدث عنها الخطباء أو يتغنى بها الشعراء، ولكنها أصبحت سلوكا يوميا يثير دهشة العالم وإعجابه، ولسوف نلاحظ لدى دراستنا للنماذج الأدبية عن الانتفاضة أن الشهادة أصبحت الموضوعة الأولى في الإبداع الشعري والفني والقصصي.

٣ - التطهير: رغم أن الاستشهاد هو أعلى مراتب تطهير النفس إلا أن ثمة مراتب أخرى من التطهير أدنى درجة، صنعتها الانتفاضة وأسهمت في تكرسها، إن تطهير الناس من القيم والممارسات الفاسدة وتطهير الثقافة من الأورام النرجسية والعدمية، وتطهير المجتمع من العملاء والفاستدين هو الخطوة الأولى على طريق بناء مجتمع الانتفاضة الجديد والخطوة الأولى نحو تأسيس ثقافة وطنية جديدة.

من مظاهر التطهير التي تمت إبان الانتفاضة على الصعيد الاجتماعي إضافة لما تم إبرازه في مستهل هذه الدراسة من تغيب للقيم السلبية في العادات والتقاليد، المبادرة إلى إغلاق دور اللهو وامتناع الشباب عن ارتيادها، وابتعادهم التلقائي عن الموبقات والانحرافات التي كانت سائدة قبيل الانتفاضة، وعزل العملاء والمنحرفين ومطاردتهم وعدم التعامل معهم، ومن ثم تصفية الخطرين منهم، بل إن بعض الفئات الدينية ذهبت إلى ما هو أبعد من ذلك في الأسابيع الأولى للانتفاضة حين قام بعض شبابها بمداهمة البارات ومحلات بيع الخمور واتلافها، وفي هذا السياق لا بد من الإشارة إلى عودة المسجد ليأخذ دوره في تحريك المشاعر وإثارة الحماس^(١٦)، فالماذن أصبحت تستخدم قدر الإمكان، لتوجيه الجماهير وإنذارها، والمساجد

أصبحت أماكن للتجمع وتنظيم الصفوف وانطلاق المظاهرات، روى لي أحد الأصدقاء، من رام الله أن أحد المناضلين المسيحيين طلب إليه أن يعلمه الصلاة ليكون بإمكانه ارتياد المسجد والانطلاق منه مع المتظاهرين.

٤ - رموز الانتفاضة: أصبح للانتفاضة الآن رموزها البينة، على صعيد الواقع اليومي وعلى صعيد الواقع الثقافي، على صعيد الممارسة والسلوك وعلى صعيد الفكر والإبداع، من هذه الرموز التي تراها العين وتنقلها شاشات التلفزة العلم الفلسطيني وشارات النصر، والخطبة (غطاء الرأس) الفلسطينية المرقطة السوداء أو الحمراء والفتيان المثلثون، والمقلاع والحجر والمولوتوف، من هذه الرموز على الصعيد الثقافي الحجارة وأطفال الحجارة والشهداء والشهادة. كل هذه الرموز التي صنعتها الانتفاضة دخلت الإعلام العالمي والعربي والثقافة العربية وأصبحت جزءاً من الانتفاضة نفسها وإحدى إنجازاتها البارزة.

وهي رموز يتمسك بها مجتمع الانتفاضة ويعتبرها جزءاً لا يتجزأ من حياته اليومية، يعتز بها ويدافع عنها ويسقط تحت لوائها.

نماذج إبداعية

رابعاً: في الإبداع الأدبي والفني والفولكلوري:

هذا البند يحتاج إلى دراسة أكثر تفصيلاً، هناك الشعر والقصة والرواية المسرحية والزجل والأغنية الشعبية والفن التشكيلي، وليس بالإمكان في هذا المقام تناول آثار الانتفاضة على كل هذه الجوانب، وعليه فسكتفي هنا بالحديث عن الشعر لأنه كان النوع الأدبي الأسرع تأثراً بالانتفاضة، والأكثر من حيث الكم الإبداعي، ومع ذلك فلا بد من التنويه بشكل خاص بالآثار العميقة التي تركتها الانتفاضة على الأغنية والزجل والفن التشكيلي، وخاصة الرسم، وفي هذا المجال أصبحت الانتفاضة وشهادتها وقضاياها هي الهم الأول والأخير للفنانين التشكيليين في فلسطين المحتلة - وحتى بعض التشكيليين من التقدميين الإسرائيليين^(١٧) الذين شاركوا في معرض شهداء الانتفاضة الذي أقيم في مسرح الحكواتي في القدس خلال

شهر آب ١٩٨٨ ، وكان مكرسا لشهداء الانتفاضة حيث قدم الفنانون المشاركون (مائة لوحة بورتيرية للشهداء)^(١٨) .

وفي حديثنا عن الشعر ليس ثمة متسع لتناول كل القصائد ولا كل الشعراء ولذلك فسأقصر حديثي على نماذج لشعراء الداخل الفلسطيني، شعراء الضفة والقطاع وشعراء فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ ، وهي النماذج التي توفرت لي خلال هذه الفترة وبالإمكان إجمال القول في هذا الشعر ضمن إطارين رئيسين هما:

١ - إطار الشكل والبناء الشعري الجديد .

٢ - إطار المضمون أو المضامين الجديدة .

١ - فيما يتعلق بالإطار الأول كان الأثر البالغ للانتفاضة في عودة الشعر إلى الشارع ، إلى الناس البسطاء من فلاحين وكادحين ونساء وأطفال ، أصبح الشعر ، ومنه الزجل والأغنية ، زاد المتفضين اليومي ، وأصبحت أشرطة أغاني الانتفاضة تطارد من قبل جنود الاحتلال كما يطارد أطفال الحجارة أو كما تطارد السلع الممنوعة . عاد الشعر إلى دوره الأول وحسم النقاش هناك بين النقاد والشعراء والجمهور ، يقول الشاعر خليل توما : الأحداث العظيمة تخلق أدبا عظيما وأدباء عظاما ، وأنا متفائل بأن الكتاب الذين يولدون اليوم في خضم هذه الأحداث العظيمة ستكون لديهم القدرة على تصوير الأحداث واستلهاهم دروسها^(١٩) .

ويقول الشاعر أسعد الأسعد : «إن ما كتبه شعراء الانتفاضة في الداخل هو الأكثر ابداعا وتعبيرا عن الواقع مما هو عليه الأمر في الوطن العربي»^(٢٠) .

وبغض النظر عما يقوله النقاد في الخارج عن المستوى الفني لشعر الانتفاضة فإن الدارس المنصف لا بد له من الاعتراف بأن نماذج كثيرة من هذا الشعر تسقط دونما شك في هنات لغوية وعروضية أو هنات أخرى كالمباشرة والتصوير الحماسي وغير ذلك ، ولكن الانصاف في المقابل يدعونا إلى القول إن شعراء الداخل ليس لديهم الوقت الكافي للناية كثيرا بالشكل الفني وهم يعيشون المعركة ويقفون يقاتلون بالكلمة والحجر ويمارسون الفعل جنبا إلى جنب مع القول ، إنهم لا يكتبون الشعر

من خارج المعركة ولكنهم يكتبونه من داخل السجون والمعتقلات من أنصار ٢
وأنصار ٣ وغيرها.

وإذا كانت الانتفاضة قد ألغت المسافة بين القول وبين الشعر والممارسة، فهي
قد ألغته تماما على صعيد الإبداع الأدبي لشعراء وقصاصين يقبعون في المعتقلات
ويناضلون بأجسادهم وأقلامهم ويواجهون الاحتلال جنبا إلى جنب مع المعتقلين في
السجون. لقد أنقذت الانتفاضة الشعر في الداخل من البهلوانية اللفظية أو
التهويمات الفردية أو الاغراب والافتعال الرمزي، وأعادته إلى قلب المعركة، وجعلت
منه سلاحا أمضى وأفتك من الحجارة والمولوتوف.

وفي الحديث عن إطار الشكل لا بد من الإشارة إلى القاموس الشعري الجديد
الذي منحه الانتفاضة للشعر، وإذا كانت كلمات الحجر والحجارة وأطفال الحجارة
قد ملأت الشعر العربي، داخل الأرض المحتلة وخارجها، فإن ثمة قاموسا آخر لشعر
الانتفاضة لم يصل بعد إلى الخارج، وهناك الآن كلمات تشكل قواسم لكل قصائد
شعراء الانتفاضة، ومن هذه الكلمات على سبيل المثال: المخيم، الشهيد، العلم،
الكوفية، المقلع، السجن، المعتقل، الوطن، الموت، الجنازة، الدم، المولوتوف،
الطفل والأطفال، إضافة إلى الحجر والحجارة.

٢ - فيما يتعلق بالإطار الثاني وهو مضامين شعر الانتفاضة، يمكن القول أن
الاطار العام الذي ينتظم لكل القصائد هو المواجهة مع الاحتلال من أجل تحرير
الوطن والإنسان، من أجل اخراج الغزاة وإقامة الدولة المستقلة، وكل المضامين
الأخرى هي مجرد تفاصيل تندرج ضمن هذا الإطار. من هذه التفاصيل:

أ - الحجر والحجارة: وكما حدث في الشعر العربي خارج الأرض المحتلة
حظي الحجر والحجارة بنصيب وافر من القصائد والأغنيات، وخاصة خلال الأشهر
الأولى من الانتفاضة، ورأى شعراء الانتفاضة كما رأى زملاؤهم من الشعراء في
الحجر رموزا ودلالات تتعدى كونه تلك الأداة للنضال التي ابتدعتها الذهنية القتالية
للإنسان الفلسطيني لمواجهة أحدث أدوات الحرب في يد الجندي الصهيوني، ومن
هذه الرموز، مايراه الشاعر خليل توما من أن الحجر هو الذي انتفض استجابة لدعوة

الحق فكانت ثورة الحجارة :

وهنا البلاد فريسة ستبقى للذئاب
لفظت مسامير الصليب إذ ادلهم الليل في جنباتها
وتمردت حين اشرأت قبضة من عمق أعماق العذاب
أذنت رياح الحق فانتفضت حجارتها^(٢١)
وهيأنا لثورتها المقالع والشباب .

أما الشاعر أسعد الأسعد فيرى في الحجر أداة للبناء إضافة إلى كونه سلاحا :

ولسوف تعصف بالبقية

يا شعب

وتبني صرحك العالي لواه

حجر ومقلع

وعزيمة مثل الحديد^(٢٢) .

أما نبيل الجولاني فيرى في الحجر أمانا وملاذا وأداة للحماية :

فيا رفيقي هذي القوافل والأعراس

والحجارة كالأحباب

تحميني وتحميك وتعيد لمن ماتوا الأنفاس^(٢٣)

أما يوسف حامد فيرى في الحجارة سبيلا للخلاص :

الآن حرّك باتجاه الشمس رأسك

وانتفض

واحمل حجارتك المباركة التي

تأخذك من ليل إلى فجر إلى الدنيا^(٢٤)

أما ماجد أبو غوش فهو يرى في الحجر كل شيء :

في يدك الساحرة

يتحول الحجر

ويفتح في الصمت أبواباً لشمسنا الطالعة
يصير الحجر قذيفة
يصير الحجر قابلة (٢٥)

أما عبدالناصر صالح فهو يستوحي في الحجر كل المعاني الممكنة ويجعله البدء
والنهاية :

في البدء قد كان الحجر
بيتاً، الها للعبادة
واليوم قد صار الحجر
رمزاً لتحقيق السيادة
حجر سيبني دولة ويزيل أنقاض الخيام
حجر سينقل أمة للنور بعد ولوجها عصر الظلام.
حجر حجر
حجر ويتنفض الشجر
في ساحة الشهداء أعراسا
وتلتحم الكواكب بالقمر
في البدء قد كان الحجر
عاش الحجر، عاش الحجر (٢٦)

أما «ابن الجبل» (*) فيرى الحجر على النحو التالي :
حجارتنا قناديل تضيء الدرب في العتمة
نحتنا بعضها تحفا نقدمها مع القبلية
فتاة مهرها حجر يضاهي القرط والدبلة (٢٧)

أما الشاعر فوزي البكري / القدس فقد تجاوز في امتداح الحجر كل الحدود
الممكنة .

حجر الفلاسفة الذي
سيحوّل العتم المرسب في مفاصلنا

إلى ضوء
كي يكشف ما تستره القذارة

وفوزي البكري نفسه جعل الحجر وثنا مقدسا :
وكنّت بين أصابع الأطفال
أعلى من طفولتهم وأنفس
وإذا استفزك في الرصاص شراسة
دويت فوق رؤوسهم أعتى وأشرس
بوركت يا وثني العظيم
القاهر القهار
بوركت أيها الحجر المقدس (٢٨)

ب - الشهادة والشهداء : إذا كانت الحجارة قد شكلت الموضوع والهاجس والقاموس الأول للشعر والشعراء في فلسطين المحتلة والخارج خلال الأشهر الأولى من هبوب الانتفاضة فإن شعراء الانتفاضة وبحكم انخراطهم اليومي في النضال إلى جانب جماهيرهم لم يقفوا طويلا عند الحجر، لأن ثمة مضامين أخرى أصبحت أكثر حرارة وأدعى للتناول، وأصبحت هذه المضامين في المرحلة التالية القاسم المشترك لكل القصائد والشعراء، مثلما ظل الحجر في المرحلة الأولى هو القاسم المشترك، أصبح الاستشهاد والشهداء هو الأغنية وهو الهاجس وهو اللغة اليومية التي يتداولها الناس والشعراء، وحتى أجهزة الإعلام في العالم، وكانت «قصائد الاستشهاد» ملامح شعرية متألفة، ستظل علامة بارزة في الشعر العربي المعاصر إلى أمد طويل، كما سيظل الاستشهاد الفلسطيني إبان الانتفاضة أحد المعالم المشرقة في التاريخ العربي المعاصر، وأحد المآثر التي يحق للإنسان العربي أن يفاخر بها الدنيا .

ولعل أهم ما يميز «قصائد الاستشهاد الفلسطيني» أنها ليست مرثي أو تفجعات أو نواح، ولكنها تمجيد للاستشهاد وتحريض عليه، فهو الطريق الوحيد لتحرير الوطن وخلاص الأمة وهو الحياة :

يقول شكيب جهشان (الناصر):

اغمض له جفنيه
كانت صورة الوطن الحبيب
وديعاً في يؤبويه
اغمض له جفنيه
كانت شارةُ النصر المؤزر
تملأ الدنيا عليه
يا أجل الشهداء حي أنت
رغم أنوفهم وسيوفهم
رغم قيودهم وجنودهم
يا أجل الشهداء، حي أنت
رغم عصيهم وعديهم
يا أجل الشهداء حي أنت حي
حي أنت حي (٢٩)

وهذه صورة أخرى يقدمها الشاعر عدنان الضميري من سجن أنصار ٣ في
رثاء الطفل الفلسطيني مأمون عبدالرحيم جراد / طولكرم الذي استشهد يوم
٣ / ٤ / ١٩٨٨ وهو يرفع العلم الفلسطيني فوق عمود الكهرباء:

وتظل تبحث في العراء
تسقي دماؤك كل أعمدة الإنارة
تورق الأسلاك أعلاما
يخضر قرص الشمس
في اغماضة العينين في حلمك
ويبدل الدوري ريشه
وتصير تشبهك السماء (٣٠).

أما الشاعر عبدالناصر صالح فيرى أن دم الشهيد هو بدء الحياة وهو الشرارة

التي ستظل تفجر الانتفاضة وتبعث قوافل الثوار والشهداء :

المجد للشهيد

ييزغ النهار من شريانه

ومن عينيه يطلع القمر

وتبدأ الحياة من يديه

تصهل الخيول من أهدايه

ويخرج المثلثون من دمائه

ويورق الشجر

ملثم يوزع البيان

وأخر يكتب بالحر على الجدران

وثالث يراقب المكان

ورابع يلقي على الرفاق شارة الأمان

وخامس يزين الأسطح بالرايات

وسادس ينهض في بسالة

ليشعل النيران

وسابع يصيح قد أتوا

ويكسبُ الرهان

وثامن يشد من عزيمة الرفاق

يطلق العنان

وتاسع يهتف أن تقدموا

لا خائف منا ولا جبان

وعاشر

يسقط في دمائه مضرجا

يستنطق الزمان^(٣١)

وهكذا تظل دورة الشهداء تدور وتظل الانتفاضة تشتعل ويظل النهار ييزغ

من شرايين الشهداء وتورق الأشجار .

أما الشاعر يوسف حامد فيرى أن الشهيد هو أكبر من تسميه البلاد:
أكمل غناءك

في مجابهة العساكر
ستكون أعظم من تهايه النساء
وأنت تُحمل فوق أيدينا شهيدا
ستكون أكبر من تسميه بلادي^(٣٢)

أما الشاعر خليل توما فهو يرى في الشهادة زفة وعرسا وصعودا من عتمة القبر
إلى الضياء :

كفن الشهيد مزينٌ، علم هنا، علم هناك وزفة
هل للفرجة أن تراك
وقد انتهكت الموت أهلك الهلاك
ويداك باركتا الجموع، على خطاك جحافل
كفن الشهيد مزين حملته أجنحة النور
هذا سبيل الصاعدين من القبور
من عتمة الجب الحقيق إلى الضياء
بين الرصاصة والجنائز واحة خضراء
أواه يا وطني فما أحلى النداء^(٣٣)

هكذا تمجد قصائد الانتفاضة الشهداء وتحرض الثوار على طلب الشهادة،
ومثل هذا النهج ليس جديدا في الأدبيات الفلسطينية التي صدرت عن أو واكبت
النضال الفلسطيني منذ عشرينات هذا القرن، منذ الثلاثاء الحمراء لإبراهيم طوقان
وحتى الانتفاضة الأخيرة .

خبز يومي مُر

ج - المعتقلات والسجون : للشعب الفلسطيني مع السجون والمعتقلات

تجربة فريدة بين كل شعوب العالم، فليس ثمة عائلة فلسطينية واحدة لم تعرف السجن أو الاعتقال لواحد من أفرادها أو أكثر، ذلك هو ما تقوله الأرقام الواردة من فلسطين المحتلة، واستنادا إلى جريدة الاتحاد الحيفاوية (٢٠ / ٥ / ١٩٨٨) فإن واحدا من كل ٢٠٠ مواطن فلسطيني قد خضع للاعتقال الإداري وهناك ثلاثة من كل مئة فلسطيني دخلوا السجون والمعتقلات. وتضيف الاتحاد أن ٤٠٠ ألف فلسطيني ممن تزيد أعمارهم عن ١٧ عاما دخلوا السجن^١.

ولأن تجربة الفلسطيني مع السجن تجربة في غاية الغرابة والحميمية فقد أصبح بالنسبة لهم خبزهم اليومي المر وبالنسبة لشعرائهم وكتابهم ومبدعيهم أصبح جزءا لازما أساسيا من التجربة. معظم القصائد التي تنشرها الصحف الأرض المحتلة هذه الأيام تحمل في ذيلها أنصار ٣ أو أنصار ٢ أو مجدو أو جنيد أو الفارعة أو عوفر إلى آخر قائمة السجون والمعتقلات، لقد أصبحت تجربة السجن جزءا من التجربة الإبداعية لكل شاعر أو صحفي أو قاص أو فنان تشكيلي.

ومنذ ديوان «كلمات سجيئة» الذي صدر عام ١٩٧٥ وضم قصائد لعدد من الشعراء السجناء^(٣٤) نشرت عشرات بل مئات القصائد لشعراء في السجن أو قصائد تصف السجون وأحوال المعاناة الرهيبة التي يعيشها السجناء.

بعد الانتفاضة تصاعدت وتائر المعاناة وتضاعفت مرات ومرات أعداد الذين يساقون كل يوم إلى السجون، نورد فيما يلي نماذج من شعر السجون التي نشرت خلال شهور الانتفاضة:

الشاعر خليل توما يرى كل عذابات السجن وسفالات المحققين مجرد ساعة لا

بد تمضي:

هي ساعة ما بين قبو الموت والفجر الأكيد

بين الزنازين التي امتلأت وبستان

رسمنا بالدم الغالي مداه

ما بين كرباج المحقق وهو ينطح صخرة

وسرور طفل باسم مثل الالهة
هي ساعة ما بين صخرة حامل سقطت بأعقاب البنادق
وانحسار الطلق عن نبض الحياة
بين انفجار رصاصة
وصعود نجم قمة أخرى لتغتسل الخليقة في ضياه
هي ساعة سنسيرا نحن الحفاة (٣٥).
أما الشاعر المتوكل طه فهو يكتب من سجن أنصار ٣ قائلا:
من هنا

من حمأة البرد
ورشقات الرصاص المر والجنون
سوف تملو دولة الشعب
ونحكي قصة العشاق في المنفى
فأنصار انتفاضات تغني
لانتفاضات هناك
والمدى ما زال يمتد
وما زالت أناشيد الشهيدين (**)
تصب الشمس في الصدر
وقلبي آه يا أنصار
قلبي ما سلاك (٣٦).

ويصف المتوكل طه في قصيدة أخرى كتبها من أنصار ٣ يوم ١٨ / ٦ / ١٩٨٨
بعنوان «واستوت آياته» أحد السجناء قائلا:
لم تكفه كل السنين العشر
والأطياف ترسم شكلها خلف النوافذ
لم يسهج أغنيات السجن للسجان
لم يهدأ على شفة الرعود

في صدره قامت ضلوع الجوع تشحذ رمحها
لتضيء شباك الزيارة
انه جوع المساجين الذي جعلوه صباحا
للولادة والصمود^(٣٧).

إلا أن أكثر القصائد اسهابا في وصف سجن أنصار ٣ الزجلية المطولة التي
كتبها ابن الجبل ورفاقه ونشرتها جريدة الاتحاد في يوم ٢٠ / ٧ / ١٩٨٨ ومطلعها:
يا الي بتسأل عن أنصار دونك أخبار الثوار
الي منا يستشهد في الصحرا بطلع نوار

وتقع الزجلية في ٥٢ بيتا يقول البيت الأخير منها:
حذرك يا الطامع فينا فلسطين أراضينا
حاضرنا مع ماضينا والمستقبل للأحرار

د - المخيم: أصبح «المخيم» بعد الانتفاضة واحدا من الرموز الثورية
الأساسية في الشعر والزجل والأغنيات، انه كالحجر لا تكاد قصيدة واحدة تخلو من
التعرض له، ولكن المخيم هنا يختلف كثيرا بل اختلافا جوهريا عن المخيم الذي
عرفه الشعر الفلسطيني، بعد نكبة ١٩٤٨ وهزيمة ١٩٦٧. المخيم هنا ليس مظهرا من
مظاهر التشرد والمذلة وبطاقات المؤن والكرامة المستلبة، ولكنه معلم من معالم
الانتفاضة ورمز للإصرار على النضال وطرد الغزاة، المخيم أصبح هو المتراس والحجر
والاستشهاد. يقول الشاعر ماجد أبو غوش:

هنا صوت المخيم
هنا صوت الأزقة والشوارع الملتهبة
فاحملوا شهداءكم وتقدموا
احملوا أرواحكم وتقدموا
هذا زمن الحجر
والصدر المشرع

والمنازيس المشتعلة

فتقدموا (٣٨)

ويقول محمد آل رضوان :

من كل زقاق وخيم

انطلق المارد يتقحم

بالصدر وبالقبضة والقم

أسلحة الفاشي المجرم (٣٩) .

ويقول راجح السلفيتي في إحدى زجلياته :

يا صوت جلجل وأهل المخيم ناديا

ونفوس سدرت في غي العهر خليها (٤٠) .

أما الشاعر حسين مهنا فيجعل من خيم الدهيشة أرضا مقدسة يجب خلع

النعلين قبل دخولها والسجود فيها يقول :

اخلع نعليك فهذي الأرض مقدسة

اخلع نعليك واسجد

فوق بقايا الكاوتش المحروق

وفوق الأسلاك

اسجد تسقط عنك كأوراق تشارين خطاياك (٤١) .

ويطول بنا الحديث لو مضينا مع شعراء الانتفاضة نتقصي الرموز الجديدة أو

القديمة التي بعثت فيها الانتفاضة روحا جديدة ودلالات جديدة .

وبعدها هي الانتفاضة ما تزال تعيد صياغة الحياة في فلسطين ، وتعيد صياغة

الإنسان ، وتصنع يوما بعد يوم ملامح ثقافية وطنية جديدة ، تستمد نسغها وأبعادها

من دم الشهداء ودموع الأطفال ومعاناة شعب قرر أن يصنع بحجارته وسواعد أبنائه

وصدورهم العزلاء فجرا جديدا لهذه الأمة بعدما دخلت عصر الظلام أو عصر

الانقراض .

مصادر وإشارات :

- (*) نشرت جريدة الاتحاد هذه الأبيات بتوقيع ابن الجليل وهو اسم مستعار لاحد السجناء وقد ذيلت الأبيات بأنصار ٣ - النقب ٢٨ / ٦ / ١٩٨٨ .
- (**) إشارة إلى الشهيدين أسعد الشوا وبسام السموري اللذين استشهدا في سجن أنصار ٣ برصاص الجنود يوم ١٦ / ٨ / ١٩٨٨ .
- ١ - د. صالح أبو اصبح . الثقافة الفلسطينية في مواجهة الاحتلال مجلة الوحدة العدد ٢١ . حزيران ١٩٨٦ .
 - ٢ - خالد العايد . الانتفاضة الثورية في فلسطين ص ٣٨ . منشورات دار الشروق . عمان ١٩٨٨ .
 - ٣ - جريدة الرأي الأردنية ١٦ / ٣ / ١٩٨٩ .
 - ٤ - نفس المصدر .
 - ٥ - انظر مجلة Middle East International ٢٠ / ١ / ١٩٨٩ مقالة من أفواه النساء .
 - ٦ - انتفاضة كانون الكبرى في عامها الثاني . قسائمها ، طابعها ، دلالاتها ص ٣٠ منشورات مؤسسة نصار للنشر نيقوسيا . قبرص .
 - ٧ - جريدة الاتحاد .
 - ٨ - المحامي علي شقيرات من حديث شخصي معه في عمان آذار ١٩٨٩ .
 - ٩ - انتفاضة كانون الكبرى في عامها الثاني : قسائمها ، طابعها ، دلالاتها ص ٢٦ - منشورات مؤسسة نصار للنشر نيقوسيا . قبرص .
 - ١٠ - الشاعر أسعد الأسعد من حديث شخصي معه في أثينا نيسان ١٩٨٨ .
 - ١١ - المصدر رقم ٨ .
 - ١٢ - مسرحية البلاد طلبت أهلها . تأليف د. عبداللطيف عقل منشورات دار الكرمل عمان ١٩٨٩ .
 - ١٣ - د. زياد أبو عمرو من حديث شخصي معه في عمان آذار ١٩٨٩ .
 - ١٤ - مسرحية البلاد طلبت أهلها ص ١٦١ منشورات دار الكرمل عمان ١٩٨٩ .
 - ١٥ - محمد البطراوي ناقد وباحث فلسطيني مقيم في رام الله .
 - ١٦ - د. وليد سيف ، تأملات حول القيم الثقافية والحضارية في ضوء الانتفاضة ، مجلة صامد الاقتصادي العدد ٧٦ .
 - ١٧ - شارك في هذا المعرض ١٢ فنانا إسرائيليا هم : رعتان خرلاب ، أرنون دافيد ، اسحق لفين ، تسفي جيب ، جرسون كيسبل ، ديفيد ريب ، جابي كليترمان ، ميخال جولدمان ، بامبلا ليفي ، أريت ساجولي ، تومي باومان ، يوريك بيخونسكي . (جريدة الاتحاد ٢٩ / ٨ / ١٩٨٨) .
 - ١٨ - جريدة الاتحاد الحيفاوية ٢٩ / ٨ / ١٩٨٨ .
 - ١٩ - المصدر السابق .

- ٢٠ - المصدر السابق.
- ٢١ - ديوان المقاليع / قصائد من وحي الانتفاضة. منشورات اتحاد الكتاب الفلسطينيين في الضفة والقطاع. آذار ١٩٨٨. ص ١٥.
- ٢٢ - المصدر السابق ص ٦.
- ٢٣ - المصدر السابق ص ٥٤.
- ٢٤ - المصدر السابق ص ٦٠.
- ٢٥ - المصدر السابق ص ٤١.
- ٢٦ - جريدة الاتحاد الحيفاوية ١٩٨٨/٩/٢.
- ٢٧ - جريدة الاتحاد الحيفاوية ١٩٨٨/٧/٢١.
- ٢٨ - ديوان مقاليع. ص ٣٤.
- ٢٩ - جريدة الاتحاد الحيفاوية ١٩٨٨ / ٩ / ٩.
- ٣٠ - جريدة الاتحاد الحيفاوية ١٩٨٨/٩/٢.
- ٣١ - جريدة الاتحاد الحيفاوية ١٩٨٩ / ٣ / ١٠.
- ٣٢ - ديوان مقاليع ص ٦١.
- ٣٣ - ديوان مقاليع ص ١٨.
- ٣٤ - لمزيد من التفصيل انظر كتابنا زمن الاحتلال ص ٥٦. منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق ١٩٧٩.
- ٣٥ - ديوان مقاليع ص ١٧.
- ٣٦ - جريدة الاتحاد الحيفاوية ١٩٨٩ / ٢ / ٣.
- ٣٧ - جريدة الاتحاد الحيفاوية ١٩٨٨ / ٧ / ١٩.
- ٣٨ - ديوان مقاليع ص ٤٢.
- ٣٩ - المصدر السابق ص ٤٥.
- ٤٠ - المصدر السابق ص ١٩.
- ٤١ - جريدة الاتحاد الحيفاوية ١٩٨٨ / ٧ / ١٩.

القصّة القصيرة

في الأرض المحتلة

بقلم: محمّد المشايخ

اضطرّ كتاب القصّة القصيرة في الأرض المحتلة بعد الخامس من حزيران لعام ألف وتسعمائة وسبعة وستين لأن يخرجوا في ابداعهم من نطاق الحياة الضيق، لكي يدخلوا في واقع الشعب الفلسطيني الجديد، يعكسون تطلعاته ورؤاه الجديدة، ويخرجون من دائرة الانفعالية والبكائية، بكلماتهم الحارة التي تظهر موقفهم من هذا الواقع، ومن هنا كان هذا التلاحم بين القاص الملتزم، وبين الإنسان العادي الواعي في الأرض التي تعاني من هم الاحتلال، ومن هنا نجد القاص الفلسطيني في الأرض المحتلة يتجاهل كل المواضيع غير الملتزمة، ويرفض المضامين غير السياسية والتحريضية، والتي تخرج عن نطاق أدب المقاومة، نجده وبجرائته المعهودة، وبقدرته على التحدي والتحليل على الرقابة الإسرائيلية، يسطر هموم هذا الشعب الذي يعاني من كابوس الاحتلال المزعج، الذي يحرم الناس من كل ما يملكون، ولا يتيح لهم فرصة هنيئة، إلا وعكرها بجنوده المنتشرين في الأزقة والحارات . .

وكان للقاص الفلسطيني خليل السواحري شرف الريادة، حيث كانت مجموعته (مقهى الباشورة) أول مجموعة قصصية تظهر بعد الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة، وكانت فرحة المثقفين في الوطن المحتل وخارجيه، لا تقل عن فرحتهم بصدر أول مجموعة قصصية مشتركة في الوطن المحتل تحمل عنوان (٢٧ قصة قصيرة من القصص الفلسطينية في الأرض المحتلة) وقد شارك في هذه المجموعة كل من: إبراهيم العلم، جمال بنورة، حمدي الكحلوت، زكي العيلة، زياد حواري، سامي الكيلاني، صبحي حمدان، عبدالله تايه، علي لبّد، غريب عسقلاني، فضل الريمايوي، محمد أيوب، محمد كمال جبر، مفيد دويكات، ومع هذه الأسماء يمكن للباحث أن يرصد أسماء ما لا يقل عن خمسين قاصا في الأرض المحتلة كان من أبرزهم القاص محمود شقير، ثم نذكر منهم: عادل الأسطة، إبراهيم جوهر، سمير عتيلي، سامية فارس، عبدالرحيم قرمان، فالح العطاونة، محمد ياسين مكّي، محمد عبدالله قراقع، معين جبر، محمد زحاكة، وصفي يوسف، يعقوب الأطرش، يوسف العبيدي، محمد البيتاوي، حليلة جوهر، ماهر عودة، عبدالكريم عباد، صبحي شحروري، عبدالرحيم طيلة، محمود قدرّي (قبل أبعاده).

ورغم ظهور بعض الكتب المهمة التي عاجلت فن القصة في الوطن الفلسطيني المحتل، ومنها كتاب (زمن الاحتلال) للقاص خليل السواحري، (ومختارات من القصة الفلسطينية في الأرض المحتلة) للناقد فخري صالح، ورسالة الماجستير التي أعدها القاص الفلسطيني عادل الأسطة حول هذه القصة، إلا أنها مازالت تحتل الكثير من المناقشات، وتفجر الكثير من القضايا المهمة.

رمز شفاف

ثمّة رمز شفاف يغلف معظم قصص الأرض المحتلة، خاصة المغرقة منها في النقد السياسي، سواء الموجه منه لسلطات الاحتلال أو لجهات أخرى خارج الوطن المحتل، وهذه الرمزية غير مغلقة، وفهمها ممكن بسهولة، لأنها تعتمد أصلا على كلمات تحتل أكثر من معنى، ليجد القاص من خلالها منفذا للخلاص والدفاع عن

النفس من جهة، وللمرور من تحت يد الرقيب الإسرائيلي من جهة أخرى، وهذه
فقرة من قصة (البراغيث تغزو أرض القمر) توضح ذلك علماً بأن المقصود بأرض
القمر (فلسطين) والبراغيث هم الصهاينة: (في كل الجزر التي تحيط بجزيرة القمر
تعقد المؤتمرات لوقف الخطر الناجم عن زحف البراغيث ودحره إلى الأبد من الجزيرة
وعودة الطيور التي تعاني الأمرين من ظمأ الغربة في جزيرتها. . تنفض المؤتمرات ولا
يأتي شيء جديد).

وعبر شفافية الرمز أيضاً يستطيع القاص الفلسطيني في الأرض المحتلة أن يؤكد
أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، إذ أن السلاح هو العلاج الأخير لمواجهة
سلطات الاحتلال التي كانت تعلق إبعادها لبعض المواطنين من الأرض المحتلة بأنهم
دعوا لمحاربة إسرائيل، وما هو ذا بطل قصة (تذكرة سفر) للقاص إبراهيم جوهر من
داخل الأرض المحتلة يقول الكلام نفسه، ولكن بأسلوب يحميه من النتيجة السلبية
المخفية في سياق سرده القصصي. . . بطل هذه القصة من القدس، ويريد السفر إلى
عمان ومنها إلى لبنان لينضم إلى رجال المقاومة هناك، وعندما يسأله المحقق الإسرائيلي
على الجسر عن سبب سفره إلى عمان يقول له أنه يريد أن يعالج والدته بالنار. .
ويسأله المحقق: وكيف ستعالجها بالنار؟ فيقول بطل القصة: (النار عند العرب. . .
آخر شيء في التداوي) وهكذا يربط القاص بين النار الحقيقية، وبين السلاح الذي
يستخدم في المواجهة لدى العرب منذ القدم.

وتعكس القصة الفلسطينية القصيرة أوجه النضال المختلفة، وطرق التضحية
التي يسلكها الشرفاء في الداخل، فهذا أب يتحدث من خلال قصة (السارق)
للقاص يعقوب الأطرش أمام قاضي المحكمة الإسرائيلية الذي يريد أن يسجنه بعد
أن كانت سلطات الاحتلال قد قتلت ابنه الأكبر، وسجنت الأصغر (سيدي. . .
رويدك. . فقد بقيت لي نقطة. . ثم لتصدر بعد ذلك الحكم الذي تريده. .
ولتسوقني بعدها إلى السجن لأمضي مدة العقوبة التي تشاؤها. . . ولكن ثق بأن
السجن قد يكون أرحم لي من هذا العذاب الذي أعيش فيه، فلعلك لا تدري أي
جحيم يعيش فيه المرء حيث يقتل ولده الأكبر ويسجن الأصغر بعد أن تسلب داره

وتصادر أراضيه ليحتلها غرباء أمام ناظريه ودن أن يستطيع أن يوجه أي تهمة أو أن يبدى اعتراضاً)

وفي إطار وصف الالتزام بالفعل، يسطر قصاصو الأرض المحتلة، العمليات الجريئة لرجال المقاومة في الداخل، وما تؤدي إليه هذه العمليات من هلع لدى سلطات الاحتلال. وهذا مشهد من قصة الخيط الأبيض للقاص زكي العيلة، يوضح إحدى هذه العمليات: (لم تدر كيف تدير أمورك، كيف تلملم نفسك عندما حدث ما حدث، دوي هائل، انفجار، ضجيج، دخان، زعيق، طنين، ينشل تفكيرك، الشارع الجانبي الموازي، ركض، كشافات تحوم فوق جسدك، تتوقف، تتجمد، طنين، يتكلمون فوق رأسك، رطن، صفعات، ركلات، خرقة مفككة يجرجرونها، كرة مضغوطة يتقاذفونها، أكثر من شهر، الذي فعلها، أين ذهب، علاقتك به، شريكك. . تحقيق متواصل، تتضخم الملفات، تراكم. . والإجابة واحدة: زلة في حالي. . لا أعرف شيئاً، لم أر أحداً، لا أعرف أحداً).

صراع مواقف

ولأوجه الصراع الطبقي نصيب كبير في أدب الداخل، إنه ليس الصراع على المال، ولكنه صراع المواقف والأيدولوجيات، صراع اليد التي تكوى بالنار، واليد الغارقة في الذل، صراع النفس التي تضحي بالحياة، مع النفس التي لا تضحي حتى بكلمة نظيفة شريفة، ولنر معا، موقف كل من التاجر والأجير في قصة الليل والمدينة للقاص غريب عسقلاني من قضية الحكم على أحد الأشخاص بالمؤبد: (تصفح التاجر جريدة القدس على عجل، وتوقف عند أسعار العملات، ورمى الجريدة. . التقطها الأجير. . زفر التاجر. الليرة ماتت. لازم نرفع الأسعار. عين الأجير مثبتة في زاوية الصفحة الداخلية، وقرأ بصوت مسموع متقطع: (حكمت. . على معين. . . بالمؤبد. .) قال التاجر متشائماً: يا فتاح يا عليم. . نهار من أوله. . . مؤبد. . حياته تروح في السجن. . ايش استفاد الهامل ابن الهامل. . ثم تحول إلى أجيره: يعني ما عجبك في كل الجريدة غير هالخبر. . لا. . سبع. . وعض الأجير لسانه. .

ومشى... وفي رأسه شاب أسمر قيدته أيام المخيم... وكاد يصرخ: معين مش هامل يا ابن ال...)

وحرص كتاب القصة في الأرض المحتلة على الوقوف مع المعتقلين في السجون الإسرائيلية، لكي تظهر لنا جرأتهم ومعنوياتهم العالية أو المترفعة عن الخشية من التعذيب الوحشي الإسرائيلي، وهذه قصة من الجنوب قادم ليوسف طاهر عبيدي توضح هذا المعنى: (كان خطرا من وراء عتمة الزنزانة، شعاع الشمس يتسلل في جزء بسيط من النهار فيرسم الشعاع وهجا ناريا في العينين الجميلتين، شعروا بخطورته، بعدما تبين لهم أن العدو انتقلت إلى خارج الزنزانة وأن هنالك عددا كبيرا من المصابين، قرروا إبعاده إلى الجنوب (جنوب لبنان) وصله الخبر بذلك، ضحك كثيرا وقال: (وفروا علي كثيرا، وأعتقد أنه يوجد ثمة طريق توصل من الجنوب إلى الشمال).

وتعكس القصة في الأرض المحتلة إصرار الفلسطينيين على الإنجاب والتكاثر، وعلى الاستمرار في تجدد الحياة، هذه الحياة التي تحاول سلطات الاحتلال إبادةها بوسائلها المختلفة، وها هو ذا القاص جمال بنورة يقول في قصته الشيء المفقود على لسان أحد السجناء الذين أعطوه إبرة بها سائل أزرق في إحدى الخصيتين للتوقف عن الإنجاب: (أتذكر قول المحقق الإسرائيلي: سوف نمنعكم من التكاثر يا أبناء القبة... حتى تكفوا عن انجاب المخربين... ولكن محاولاتهم ستفشل... كانت زوجتي تقول: (أنظر حولك لتر... إن شعبنا الفلسطيني يتكاثر بسرعة رغم أنوفهم... لا يهم أن يكونوا من صلبنا... أبناء شعبنا هم أبناؤنا أيضا... انهم يركزون على أعضاء التناسل، يغیظهم أن يظل شعبنا يتكاثر، أكثر مما يغیظهم عضونا التناسلي، يحاولون إذلاله بتوجيه ضرباتهم إليه حتى تكف عن الإخصاب).

الشكل الفني

وفي خضم الحديث عن الشكل الفني للقصة، نلاحظ قدرة كتاب القصة في الأرض المحتلة على السير مع التكتيك القصصي الموصل لأدق الدقائق في الأحداث

التي تشهدها الأرض المحتلة، وهذا نموذج من قصة عرس ويكتمل للقاص سامي الكيلاني، حيث يتضح الأسلوب القصصي إلى جانب المضمون الوطني : (ضربات الطبله تملأ البيت، وأكف الحضور تشتد وتشتد، وكأنها لا تعرف الإنهاك، أصبحت من فولاذ تسقيه حرارة التصفيق والفرح، والنشوة، الحب، الانتفاء، تشرب جميعا في كل عروق من عروق جسده، لو يستطيع أن يفتح قلبه واسعا ليستوعبهم، لو يصبح هذا القلب مطهرا يدخلون ويخرجون منه وقد استحموا وأسقطوا كل الهموم والأحزان والتنغيص (هاتوا أحزانكم) حتى لو أدى ذلك إلى أن تدخل هذا القلب وتبقى فيه، مستعد لأن آخذ كل ما يثقلكم ولو في ليلة فرحي، أي هموم تضعونها جانبا حتى ينهض هذا الفرح، أنت . . أي درجات تصعد لتصبح فوق مستوى حزنك لفراق ولدك الوحيد الذي لم تره منذ خمسة عشر عاما، هل سعدتها من أجلي، هل تفرح بي لأنني أنا، أم لأنك تفترض في مكاني ولدك، لا فرق فأنا ولدك أيضا، وأنت كيف يرن صوتك بهذا الغناء وقد قلبوا بيتكم بالأمس سافله عاليه وأخذوا أخاك ولم تدروا إلى أين اتجهوا به) .

وماذا عن رحيل المقاومة من بيروت، وكيف عاجلته القصة القصيرة، هذا القاص صبحي حمدان في قصته عرس المهاجم يقول لنا على لسان أحد رجال المقاومة العائدين من بيروت إلى مخيم الدهيشة في منطقة بيت لحم : (يا معشر الدهيشة ومن والاكم وجاوركم، آتيكم «ولي الشرف التليد» تحملني النسائم الآتية من أعماق البحر، وأسراب الطيور والحمام، أنا أبو الكريم يا آل الدهيشة وبيت لحم ومن جاوركم ووالاكم، أنا الوالد الولد، العاشق من الأبد حتى الأبد، آتيكم قريبا حاملا قلبي في دمي حيث النبض الجارح والوجد الساخن، وحيث رموش العيون، آلاف الرسائل السرية التي لا يفهمها إلا أنتم ومن والاكم وجاوركم، وأكل خبزكم المعجون بزيت الوكالة أوزيت الجبل، يا معشر الدهيشة الكرام العظام، انتشروا في الطرقات وكل الدروب والدهاليز إلى رحاب الشمس والشوارع والنوافذ المشرفة على أمل لا يموت، أنتم جميعا يا من تكبدتم وعانيتم وتألتم، آتيكم حاملا الزنايق وعرائس البحر وأحلاما ساخنة في رأسي، وأجيئكم وعدا أكيدا حيث شلالات

الغضب الهادر في أروع عنفوانها، أجيئكم فانتظروني في الحارات القديمة، وعند نواصي صلاح الدين وخان الزيت وفي شغاف وعند أطراف حلحول أو في قمم جبال الخليل أو جرزيم أو عسكر أو في نخيم جنين، ولنشهد معا سلام الزنابق للزنابق، واكتمال الحناجر في الحناجر، أنا ابن الجنوب، أنا ابن الجنوب، مثلي مثلكم، آتيكم لنغني للأمل الواحد الأحد، والقادم من رموش الفجر، الصاعد من الأيادي والأكف والحناجر، يا آل الدهيشة، آتيكم وقودي الناس والحجارة).

لقد سطر كتاب القصة في الأرض المحتلة أبعاد الجوع العام الذي يعيشونه، وصوروا الكآبة والحزن السائد في الأرض المحتلة، ولم يكن هذا التصوير نوعا من الدعاية للصمود، ولا تعبيرا عن الذل والخضوع، ولكنها كلمة حق لا بد أن يقال، إنها أمانة في نفس المبدع ورسالة في قلب الأديب، لذا فهو مضطر لأن يقول كل شيء، بأدواته الفنية التي تحترق كل الراحات وتتجاوز كل المنغصات لكي تقول: (لن تسوء الأمور أكثر من ذلك، في موجة الحزن تغرق كل الأشياء في بحر أسود، مقاطع تتحبب في المفهى المجاور «وسترجع يوما يا ولدي» حتى العظام تتغلغل الكلمات «مهزوما.. مكسور الوجدان».. نفس الكلمات لاحقني بها أبي طفلا.. وستعرف بعد رحيل العمر بأنك تطارد خيوط دخان»^(١).

لم تكن هذه الأغنية في يوم من الأيام سياسية أو وطنية تعنى بالرجوع إلى الأرض المحتلة، ولكن الجوع العاطفي الذي سطرها والبعدن الأدبي والفني، التقيا مع نفسية متعطشة لما يعبر عنها ويوضح ما يدور بخلدها، هذه النفسية هي ذاتها التي استطاعت بكلمات عشر فقط أن تكشف لنا حقيقة الحصار المفروض على أهل في الأرض المحتلة، هذا الحصار الذي يتمثل في نسيان شباك المنزل مفتوحا في أثناء حظر التجول الذي يعني كبت الأنفاس وقتل الحريات في أزمنة الاحتلال المقيتة، يقول بطل إحدى هذه القصص باللهجة العامية (يا عسكري، نسيت الشباك مفتوح، شميننا هوازياده اليوم)^(٢) إنه التحدي الذي يمسح إجراءات السلطات الإسرائيلية غير الإنسانية ويضعها بلا معنى ويفقدها الجدوى التي خلقت من أجلها، وهذه النفسية أيضا ما زال حنينها مستمرا وصمودها يزداد صلابة، رغم كونها قد دفعت

ضريبة هذا الحنين وذلك التصدي، إنها تفخر بما أصابها، بل وتزداد اعتزازا كلما دفعت ثمن الولاء للوطن من دمها الطاهر، وماذا يقال عمن أصيبت قدمه، لا للذنب ارتكبه سوى أنها لم تنس الواقع الموضوعي الجديد الذي مرت به هي ومن حولها: (ثلاث وثلاثون طرزة نسجت منها قدمي المجنونة، أتدرون لماذا؟ لأنها حنت إلى الأرض والزرع والفقراء)^(٣).

عودوا

وفي الوقت الذي كان فيه كتاب القصة في الأرض المحتلة يدخلون به إلى نفسيات الإسرائيليين الذين هاجروا إلى فلسطين، فيذكرون سبب هذه الهجرة، ويمهدون للهجرة المعاكسة التي سيقوم بها هؤلاء بعد أن فقدوا الأمل الذي جاءوا من أجله، حيث يقول أحدهم: (أعمل في وزارة الصحة الإسرائيلية منذ عشرين عاما، سأطلب ما أستحقه، وسأهجر إسرائيل... آه... اقنعوا والدي المتدين بالهجرة إلى فلسطين، عزفوا له على وتر الدين، وقالوا له: (من يموت في أرض الميعاد، سيبقى جسده كاملا، ولا يتآكل حتى يوم القيامة، لأن التربة مقدسة وخالية من الديدان، أرغمنا على الهجرة إلى فلسطين)^(٤).

في هذا الوقت، نجد هذه القصص ترفض هجرة المواطنين المقيمين في الضفة الغربية وقطاع غزة، حتى أنها تدين كل من حدثته نفسه في اتخاذ خطوة كهذه، ومن هنا عبر أحد هؤلاء عن هذه القضية الخطيرة بالمقطع التالي: (يتابع سير الباص الذي يقل أبناء المناطق المحتلة إلى الجسر ويعود فارغا، ويكرر إدانته لهذه العملية التي تحدث بشكل شبه يومي... بعد قليل يغادر كل وطنه ويعود السائق ومعاونيه ليعودا غدا، وتكرر العملية، تتساءل أما يشعر بالفراغ في المدينة التي كانت ممتلئة خلال أشهر الصيف، ولكن ما همهم، إنهم يعدون الأشهر الباقية لحزيران، حزيران العودة ولكن بتصريح، أما يعدون لحزيران آخر؟)^(٥).

إن هذا القاص، يربط بين الخروج السلبي، وبين الإعداد الإيجابي للأمر الأقوى، مثله في ذلك تماما مثل كل كتاب القصة الذين أبدعوا أعمالا قوامها تمجيد

العودة إلى الوطن مهما كان الثمن، فهم لا يكتفون بالأقوال التي تصف الوضع المزري في الأرض المحتلة لكي تكون مبررا لتفضيل الغربية في العالم الذي يقال إنه مليء بالبذخ والترف والجاه والمال، ومن هنا نسجل بعض هذه المقاطع من قصص متعددة توضح هذه الحقيقة:

— إن حياته في وطنه معنى كاد ينساه في تلك البلاد، فداخله شعور بالبهجة كطير انتظم في سربه بعد ضياع طويل^(٦).

— دار نقاش حول توزيع المهام، وبسرعة تم الاتفاق على سفر مجموعة من الشباب في اليوم التالي إلى عمان ودول الخليج وأن يقوم آخرون بالاتصال تلفونيا من المدينة المجاورة بأبناء القرية في أمريكا، كانت الرسالة التي كلف الشباب بنقلها قصيرة ومختصرة وواضحة، كانت تقول: (عودوا)^(٧).

إن هذه الكلمة خطيرة، وتكلف الكثير، فاجراءات السلطات الإسرائيلية وروتينها الممل والمذل ليست سهلة عند العودة، لأنها الخطر الحقيقي الذي يقاوم وجودها، ويعني الرفض المطلق لكل قوانينها، إنها لا تريد لابن الأرض أن يعود إليها، بل إن كل همها أن يبقى بعيدا غريبا مشردا لكي تتمكن في غيابه من بسط سيطرتها وفرض نفوذها، وهذه الإجراءات، تتضح في هذا المقطع القصير:

(— لماذا أتيت؟)

— لزيارة الأهل في قطاع غزة، لم أرهم منذ سنوات، محاسب في الدوحة خمسة أعوام.

وتضاف إلى ملفه عدة أوراق وعدة بصمات، الإنسان في نظرهم مجرد ورقة، بصمة، ملف، وثيقة، تأشيرة، مرور يمنحونها أو يمنعونها، يحجزونها، يطوحن بها عبر موائهم وزنازينهم)^(٨).

وعند العودة للوطن والإقامة به، هنالك إجراءات أخرى أسوأ من بعضها، ولم يتوان كتاب القصة في الأرض المحتلة عن طرحها، تلك هي الخيارات المعادية والمرفوضة من قبل الأهل، ذلك أن السلطات الإسرائيلية تريد منهم أن يتعاونوا معها، أن يقفوا ضد أنفسهم وضد أهلهم، فيكونوا مخبرين صادقين لها، يريدون

الأرض والخونة الذين يقيمون عليها، ولكن أنى لهم ذلك عندما يصطدمون مع
نفسيات واعية وأشخاص واثقين من أنفسهم يفضلون الموت والاعتقال وكل
الممارسات غير الإنسانية على أن يقفوا في الصف المعادي لأنفسهم: (عليك أن تغادر
المنطقة أو...)

هذه الأو اللعينة.. الموت أرحم منها... هل أستطيع أن أكل لحم أخوتي؟
هل أستطيع أن أقف ضد نفسي؟ بماذا أجيب؟ أف يا لحظي التعس...
— الأمر لا يحتاج إلى كل هذا التفكير.. كل ما نريده أن تساعدنا في المحافظة على
الأمّن^(٩).

الأرض والإنسان

ويكون الجواب بالطبع مخلا بالأمّن المزعوم، لأنه ينطق بالإيديولوجية السياسية
للصراع الدائر، وبالحقيقة التي طالما حاولت سلطات الاحتلال طمسها، انه يعكس
تمسك الإنسان الفلسطيني بأرضه، ورفضه التخلي عنها: (نحن مثل هذه الأرض
سنبقى مكاننا)^(١٠) إن هذا الالتحام بالأرض والالتصاق بها هو أقوى تعبير يمكن أن
يسجل للتأكيد على الولاء لها، لأنها ثابتة، والتشبث بها يعني المزيد من الالتحام
معه، وبالتالي تفوّت الفرصة أمام العدو.

وهنا تلجأ السلطات الإسرائيلية إلى إجراءات متعددة، من بينها الأشعار
بضرورة التخلي عن الأرض مجاناً، وهذا مستحيل كما تعمل السلطات نفسها،
فتضطر لدفع مبالغ طائلة مقابلها، وهذه مرفوضة أيضاً، ومن ثم يكون الاستيلاء
عليها بالقوة... وهنا يقف القاص في الأرض المحتلة لكي يشرح هذه الإجراءات
ويخوض في أبعادها، معرباً باسم الأهل في الداخل عن رفضها، لأنها تعنيه هو
نفسه، وبأسلوبه الفني وحواره القصصي يوضح هذه الحقائق:

— سبقى الأرض لنا رغم كل شيء إذا لم نتخل عنها...
— ولكن الأرض التي يريدونها... إذا لم يستطيعوا شراءها فإنهم يستولون عليها
بالقوة.

— سيأخذونها إذا أرادوا . . . رضيت أم أبييت، قبضت الثمن أم رفضت .
— إنهم لا يدفعون ثمن الأرض . . . ولكن ثمن الإنسان الذي يعيش عليها، هل تعرف ذلك؟! ان الأرض لا تقدر بثمن . . . لذلك فهم يدفعون بقدر ما يرضيك، بقدر ما يغريك بالتخلي عن أرضك، فهم يشترونك أنت . . . وليس الأرض، إذاً ما قيمة الأرض بدون الإنسان الذي يعيش عليها^(١١) .

وتبقى الأرض هي القضية المؤرقة بالنسبة للإنسان الفلسطيني في الوطن المحتل، لذلك نجدها تتردد على لسان الجميع، ولها حيزها في معظم القصص، حتى أن كتاب القصة في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨، قد أكدوا على هذه القضية، قولا وفعلا، واتضح ذلك بشكل رائع من خلال تجسيدهم ليوم الأرض ذلك اليوم الذي يعني الكثير بالنسبة لهم، وما هو ذا أحدهم يمزج بين الأسلوب الفني للقصة، وبين الأسلوب الفني للقرآن الكريم، متحدثا بلسان بشري مؤثر من داخل السجن يقول لمن حوله في الداخل والخارج: (كلا إن الذين يدافعون عن أرضهم هم المنتصرون، إن في ذلك لآية لقوم يعقلون، أما الذين يفرطون بأرضهم لفي ضلال مبين، ألم تر أن السامرة والجواسيس في الدرك الأسفل من النار يصلون السعير مع الكافرين، إن الذين سلبت أراضيهم ثم لم يجدوا بيوتا يسكنونها أولئك هم اللاجئون، فإذا استكانوا إلى الذل وبؤس الأيادي خسروا أنفسهم وابتاتوا على ذلك نادمين، يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ودافعوا عن أرضكم بكل ما أوتيتم من قوة إيمان، إن تفعلوا ذلك ومعكم الحق فلا غالب لكم، وكم من فئة صغيرة انتزعت حقها من فئة كبيرة بإذن الله وقوة الحق، والله وكل من يعز عليه الحق مع الصابرين المناضلين)^(١٢) .

وترتبط بالأرض قضية نفس المنازل التي تتبعها السلطات الإسرائيلية باستمرار، حيث تحرم الإنسان الفلسطيني من بيته وأرضه، حتى إنها تمنعه من إقامة خيمة على هذه الأرض، وإذا كانت هذه المنازل من القضايا المطروحة في أروقة الحكم العسكري الإسرائيلي للمقارنة بين ما نفس منها أيام حكم حزب العمل أو الليكود، وفي أروقة المخابرات الإسرائيلية لملاحقة أصحابها وتتبع خطاهم لمعرفة الجهات التي يتصلون بها، فإنها أيضا من هموم القصاصين في الأرض المحتلة:

(الإقامات الجبرية، المصادرات، الأوامر المرخصة وغير المرخصة منحهم المبرر لكي يبرطعوا كيفما شاءوا، يفعلون ما يريدون، يهدمون دارك، أو يبقون عليها، يشنقونها أو يتركونها ملقاة على قارعة الطريق)^(١٣).

وإذا كان هذا الكلام مباشرا، فإن من القصص في الأرض المحتلة ما يعطي هذه القضية بعدا رمزيا رائعا يتمثل في طفل فلسطيني يرغب في زيارة صديق آخر له، وفي أثناء سيره تجاه تلك الدار، يسمع صوت انفجار، فيلجأ إلى أقرب حفرة يختفي بها، وبعدها يقول: (ركضت نحو دار صديقي، لم أجدها، نظرت حولي فلم أجد شيئا، لا بيوتا، ولا غلا بشريا، ذهب كل شيء)^(١٤).

قصص الرفض

وللتعبير عن الرفض في الأرض المحتلة من خلال القصص أساليب شتى، فهم يتحدثون بأساليبهم الفنية، عن المظاهرات والاضطرابات والاعتصامات، ولا ينسون الحجارة التي تقذف على السيارات العسكرية والعصي التي توجه للجنود الإسرائيليين من قبل المقيمين في هذه الأرض مهما كان سنهم أو جنسهم، ومهما كان الثمن الذي سيدفعونه مقابل ذلك كله، ولتأخذ قضية خطيرة، وردة الفعل العربية تجاهها من خلال هذا المقطع القصصي الذي يقول بطله وهو ينظر إلى التلفاز:

— يبدو أنهم سيوقعون الصلح، اسمعي، اسمعي...
— كما صرح رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيغن بأن المعاهدة جاهزة للتوقيع، ولم يبق إلا أن يوافق عليها الرئيس المصري أنور السادات.

أشعل سيجارة، قال لزوجته (فجان قهوة من إيديك) وتابع والله هالأوضاع ما هي معروفة، هل ستوقع أم لا؟ من سنة وهم يقولون ٩٥ بالمئة من المعاهدة متفق عليه، ولكن الخمسة بالمئة هذه ما هي؟

— قام طلاب المدارس في الضفة الغربية بالامتناع عن الدراسة، كما تم إغلاق مدرستين، وفي بيرزيت تم فرض نظام منع التجول إلى إشعار آخر^(١٥).

وماذا عن الأطفال في الأرض المحتلة، إنهم يتمتعون بالعديد من القصص التي

تظهر وعيهم لواقعهم السياسي، لا من خلال الحجارة التي يلقونها على الجنود الإسرائيليين والسيارات الإسرائيلية، بل من خلال حس أكثر عمقا وأبعد معرفة بالأمور، حتى التي يعجز الكبار عن إدراكها، وإلا من الذي قال للطفل الذي أصر على شراء الزينة للعرس أن تكون ألوانها بلون العلم الفلسطيني:

(ضحك في سره حين تذكر اصرار ابن أخيه الصغير على أن يذهب هو بنفسه لشراء حبال الزينة الورقية فتركوه يفعل، رجع مزهوا وزاد فخره زهوا وهو يفتح اللفة التي تحتوي على الأوراق ويعرض الألوان التي اختارها، الأبيض والأسود والأخضر والأحمر، ضحكوا جميعا في وجهه واحتضنوه، وبدأ الجميع مداعبة الصغير. آه يا أزعر من يومك بدك تروح ع السجن مثل عمك^(١٦)).

هذا الطفل من بين عشرات الأطفال، أتاحت له الفرصة لكي يتمتع بمثل هذه المعرفة والدراسة، في الوقت الذي يعاني فيه الأطفال من الكثير من الارهاصات غير المعقولة ولا المقبولة على الإطلاق:

(الأطفال يموتون من قلة الماء، من قلة الهواء، والاجتماعات تتوالى، والتصريحات تفرقع في الهواء كالبلايين تعطى لليتيم لتعوضه عن كل شيء)^(١٧).

وهذا الواقع الذي يعيشه الأطفال يتضح أيضا من خلال قصص الأطفال الملتزمة التي تنشر في الأرض المحتلة رغم قتلها، ويمكن القول أن مجموعة الأديب الفلسطيني علي الخليلي التي تحمل عنوان (عايش تلين له الصخور) قد أوضحت معاناة الأطفال الفلسطينيين بشكل متكامل، وتوضيحا لهذه الحقيقة، نقتطف من هذه المجموعة قصة قصيرة تحمل عنوان (الطائرات):

(هل يشتري دمية أم رغيفا؟ هو جائع، وحبيبته الصغيرة تشتهي دمية جميلة، هل تشتري دمية أم رغيفا، هي جائعة وحبيبها الصغير يشتهي دمية جميلة، كانت الطريق تمتد من أول المدينة حتى آخرها، كان الولد في جانب، والبنت في جانب، وكانت الطائرات في الأفق البعيد، كانت المدينة تمتد من آلاف العيون حتى الجانبين الأخضرين، قبضتان ناحلتان، ومتباعدتان تحاولان الآن أن تثيرا اهتمام كل هذه

العيون بدميتين لهما ذات التفاصيل، يتحرك الولد خطوة، تتحرك البنت خطوة، لا يلتقيان بعدها، ولكن الطائرات تقصف كل الطريق، تمزقت القبضتان الناحلتان مثل فئات ورد أحمر مسود، ودميتان جامدتان قرب بركة الدم، ظلنا لا تدركان مغزى لهذا الهول^(١٨).

قضايا فنية

ولا بد هنا وفي إطار هذه الدراسة القصيرة، من الإشارة إلى بعض القضايا الفنية، التي تتعلق بفن القصة القصيرة في الأرض المحتلة، ولعل العلامة الأولى البارزة بها، هي كثرة استعمال اللهجة العامية الفلسطينية من خلالها، ذلك أن بعض المقاطع القصصية، تعجز القاص وتشعره أن اللغة العربية الفصحى لا تستطيع إيصال المعنى المطلوب إلا باستعمال اللهجة المحكية في المناطق المحتلة نفسها، وللدلالة على ذلك نقدم هذا المقطع الذي تقارن فيه أم بطل القصة بين الوضع في الوطن المحتل، أيام الانتداب البريطاني على فلسطين، وأيام الاحتلال الإسرائيلي لها: (الله يرحم أيام زمان، صحيح كانوا الإنجليز منشقين ريقنا، لكن كل واحد منا كان في أرضه وبيته^(١٩)). يضاف إلى ذلك اللجوء إلى استخدام بعض المقاطع من الأغاني الشعبية الفلسطينية مع العلم أن قصاصي الأرض المحتلة، قد أدركوا قبل اللجوء إلى هذه الأغاني أن القصة القصيرة لا تحتمل الكثير من الأدوات الفولكلورية، لا لأن اسمها كذلك، بل لأنها فن آخر، بعيد عن هذا الفن، وإن كانت الحالة النفسية لأبطالها قد فرضت هذا التواصل، فإنه لا بد من الاختصار قدر الإمكان، ولتقريب هذه القضية، نأخذ هذا المقطع من قصة يقول بطلها بعد سماعه الأخبار من المذيع:

(وإن كان حصدناها قمح احنا اللي زرعناها.

وإن كان تركناها وعمر احنا اللي اخسرناها

وإن كان بدنا الأرض لازمنا نرعاها

وانشليها جوه القلب بالعين نحماها)^(٢٠).

ومن القضايا الفنية المهمة التي انتبه إليها قصاصو الأرض المحتلة، قدرتهم على إعطاء الحدث القصصي صورته الفنية المعبرة تماما والتي تتطابق مع الواقع الذي انطلقت منه، ولنلاحظ كيف صور القاص العداء المنبعث من نفسية المتعهد الإسرائيلي وهو يراقب عمال الضفة الغربية الذين اضطروا للعمل في المنشآت الإسرائيلية من خلال تصويره لخيوط الدخان المنبعثة من غليونيه بالثعابين:

(أخذ الرجل يفتش فيهم من خلال غلالات الدخان الثعبانية التي كانت تنتشر سحبا رمادية تحط على صفحات الوجوه المهزومة، تنكسر على أطرافها إشعاعات الصباح الدافئة)^(٢١).

هذا هو الالتزام الفني على حقيقته، والذي يأخذ بعدا آخر يتمثل في الحوار، ليس المسرحي، وإنما القصصي الذي ينبع من صميم فنية القصة متداخلا مع القضية الإيديولوجية التي تكمن في إطارها الموضوعي، ولنلاحظ استخدام كلمات (لم يميت الميت) والتي تحمل الكثير من التناقضات الفكرية والمعنوية والإنسانية في هذا الحوار القصير الذي يدور قرب قبر الشهيد:

(دفن والده، الساق المبتورة وبني عليها قبرا.. وأصر أن يستدين حتى يشتري رخامتين يضعهما شاهدين على القبر.. لكنه وقع مغشيا عليه عندما سأله حارس المقبرة:

— لماذا لم تكتب اسم الميت على الشاهد وتاريخ الوفاة:
— لم يميت الميت.

ووقع مغشيا عليه، وجم الحارس، وظن أن الرجل فقد عقله، لا شك أن الميت عزيز عليه).

المراجع:

١ — حمدي الكحلوت، قصة اليتيم، مجلة البیادر المقدسية، سنة ٥، عدد ٢، ت ١، ١٩٨٠، ص ٤٤.

- ٢ - سامي الكيلاني، قصة الأصابع، كتاب (٢٧ قصة قصيرة من القصص الفلسطينية في المناطق المحتلة) منشورات، آفاق، تشرين أول ١٩٧٧.
- ٣ - يوسف طاهر عبيدي، قصة أنا العشق أنت، جريدة الفجر المقدسية، ١٥ / ٨ / ١٩٨١.
- ٤ - غسان الحاج يحيى، قصة الأرض المقدسة، البدار، سنة ٥، عدد ٤، ك ١، ١٩٨٠، ص ٢٩.
- ٥ - ميس (اسم مستعار لقاص فلسطيني) قصة الخروج، جريدة الشعب المقدسية ١٠ / ١٠ / ١٩٨١.
- ٦ - إبراهيم العلم، قصة الحوت، البدار، سنة ٥، عدد ٨، آيار ١٩٨١، ص ٣٥.
- ٧ - أكرم هنية، من مجموعته القصصية هزيمة الشاطر حسن، دار الكاتب، القدس، آيار ١٩٨٠، قصة مؤتمر فعاليات القرية يصدر نداء هاما.
- ٨ - زكي العيلة من مجموعته القصصية (الجبيل لا يأتي) منشورات صلاح الدين، القدس، ١٩٨٠، قصة الوصول.
- ٩ - محمد أيوب، من مجموعته القصصية الوحش، منشورات الكاتب، القدس، أيلول، ١٩٧٨، قصة الاختيار، ص ١١٥.
- ١٠ - إبراهيم الدقاق، قصة الدولة دولة يا اختيار، البدار، سنة ٦، عدد ١، ت ٢، ١٩٨١، صفحة ٩٣.
- ١١ - جمال بنورة، قصة المقابلة، المرجع رقم ٢، ص ٢٥.
- ١٢ - حنا إبراهيم، من مجموعته القصصية ريحة الوطن، منشورات الأسوار، عكا، آذار ١٩٧٩، قصة يوم الأرض، صفحة ٢٤.
- ١٣ - زكي العيلة، المرجع رقم ٨، قصة الجبل لا يأتي، ص ٩٨.
- ١٤ - وليد ياسين، قصة الولد اللاجيء، جريدة الفجر المقدسية ٨ / ٨ / ١٩٨١.
- ١٥ - عادل الأسطه، من مجموعته القصصية فصول في توقيع الاتفاقية، منشورات الأسوار، عكا، صيف ١٩٧٩.
- ١٦ - سامي كيلاني، قصة عرس ويكتمل، جريدة الشعب المقدسية ٢٧ / ٨ / ١٩٨١.
- ١٧ - حمدي الكحلوت، المرجع رقم (٢)، قصة خير من الكلام، ص ٥٧، ص ٥٨.
- ١٨ - علي الخليلي، من مجموعته القصصية عايش تلين له الصخور، حكايات للأطفال، منشورات مؤسسة ابن رشد، القدس، ١٩٨٠، قصة الطائرات، ص ٢٣ - ٢٤.
- ١٩ - محمد أيوب، من مجموعته القصصية الوحش، قصة خالد، ص ١٩ - ٢٠.
- ٢٠ - محمد كمال جبر، المرجع رقم (٢)، ص ٢٧.
- ٢١ - غريب عسقلاني، المرجع رقم (٢) قصة الجوع، ص ١٣٧.
- ٢٢ - غريب عسقلاني، قصة العودة والحضور المتواصل، البدار، سنة ٤، عدد ٩، نيسان ١٩٨٠، ص ١٩.

مقاليع

مضامين
الانتفاضة
في
ديوان

بقلم: إبراهيم خليل

ما من شك في أن صدور مجموعة شعرية في الأراضي المحتلة في هذا الظرف الذي لا يواتي الناشر ولا القارئ ولا الشاعر لكي يهتم بالنظم والتأليف والطبع والنشر لدليل واضح على أن الانتفاضة التي تشهدها فلسطين منذ أربعة عشر شهراً^(١) انتفاضة شاملة تسعى على المدى البعيد لاحداث تغييرات جذرية وهائلة في الذهنية العربية الميالة إلى الركود منذ عقدين من الزمن، ويتطلب احداث مثل هذه التغييرات ثورة في مجال الفكر والثقافة والفن كالثورة التي تحدث في مجال المواجهة مع العدو ابتداء بالرشق بالحجارة والزجاجات الفارغة وقنابل المولوتوف إلى المقارعة بالأيدي في سجون العدو ومعقلاته الفاشية، وقد كانت سياسة الاحتلال تعتمد فيما مضى على قمع كل توجه ثقافي فقد حالت دون إصدار صحف وطنية ملتزمة وأغلقت عشرات المحاولات الصحفية الناجحة وعطلت عددا من المشروعات الثقافية وعرقلت سير العمل في الجامعات والمعاهد العالية والمتوسطة وأصدرت أوامر بحظر الكتب

والمجلات ومنعت العروض المسرحية وحالت بين الفنان التشكيلي وجمهوره وجعلت من ألوان العلم الفلسطيني ألوانا محظورة في كل عمل تشكيلي يراد عرضه في معرض أو طباعته في ملصق، وكان الغرض من هذا التفريغ الثقافي تحويل الشعب إلى شعب مجرد من تراثه الروحي والفني إلا أن الشعب أحبط مخططات الاحتلال هذه، وظلت اللوحة والقصيدة والأغنية والمسرحية تشق طريقها الصعب عبر الصخور والشعاب الوعرة وكانت القصيدة بدءا بإبراهيم طوقان وعبدالكريم الكرمي وعبدالرحيم محمود وسميح القاسم وتوفيق زياد ومحمود درويش ومعين بسيسورديفا قويا للأغنية المقاتلة التي تتردد على ألسنة راجي الحجارة فقد كبر هؤلاء الأطفال على أهازيج تلك الأغاني وعرفوا ألوان العلم، وعرفوا إشارة النصر، وإشارة التحرير، وإشارة الثورة، مثلما عرفوا التطريز الذي ازدانت به ثياب أمهاتهم على مر العصور، وقد كان نضال الفلسطينيين في مجال الثقافة والفنون لا يقل أثرا ولا خطرا عن نضالهم في المجال السياسي، ويكفي أن نعرف بأن عدد الكتب التي صدرت في الضفة الغربية وقطاع غزة ما بين عام ١٩٦٨ و ١٩٨٧ يزيد عن ٥٠٠ عنوان وأن معدل ما يباع من هذه الكتب هو ٢٠٠٠ نسخة وفرض الفلسطينيون على الاحتلال قبول الأمر الواقع من حيث إقامة المهرجانات الأدبية والفنية التشكيلية والمسرحية وإلقاء المحاضرات وإقامة الندوات التخصصية. وحلقات البحث والدراسة وفروضوا (شهر المسرح) وليالي بيرزيت وأسبوع فلسطين وأنشأوا مركز النزاهة (الحكواتي) الذي أصبح مركز إشعاع ثقافي وفني تقدم على خشبته العروض المسرحية وحفلات الموسيقى والرقص الفولكلوري وتعد في قاعته أكثر المؤتمرات واللقاءات ولذلك استفز الاحتلال فأصدرت ضده أوامر بالإغلاق وصلت إلى مئة وعشرة أوامر في العام الماضي وحده.

مقاليع وثلاثة عشر شاعرا

إن هذه المؤشرات تدلل على أن الانتفاضة لم تأت من فراغ وأن النشاط الفكري والسياسي والثقافي الذي انتعش بصفة خاصة في الجامعات وفي المراكز والمؤسسات الثقافية والأندية الشبابية والجمعيات ذات الطابع التراثي كجمعية انعاش

الأسرة وغيرها كان من الأسباب التي أدت إلى اندلاع الانتفاضة لتترك أثرها الإيجابي على فكر المرحلة وأدبها. . . . ويأتي صدور ديوان (مقاليع) الذي أسهم فيه ثلاثة عشر شاعرا من الأرض المحتلة ليؤكد الاستنتاج الذي ذكرناه والتبشير بالوعد الذي قطعته هذه الانتفاضة وهو أن يكون التغيير في مسيرة الحركة الوطنية تغييرا يشمل قطاعات الثقافة والآداب والفنون والشعراء المشاركون في ديوان مقاليع هم: أسعد الأسعد، وحسين البرغوثي، وخليل توما، وراجح السلفيتي (شعر عامي) وسميح فرج وعلي الحريري وفوزي البكري وماجد أبو غوش ومحمد آل رضوان ومحمد شريم ونبيل الجولاني ووسيم الكردي ويوسف حامد، وقصائد الديوان تراوح بين الشكل الموروث الذي يتكئ على وحدة البحر والقافية والشعر الجديد الذي يستند إلى التفعيلة من حيث أنها وحدة موسيقية عروضية وبعض هذه القصائد متحرر من الإيقاع الموسيقي وهو شبيه بما يسمى بالنثر الإيقاعي الذي يعتمد فيه صاحبه على التوظيف الدلالي للصور والألفاظ وتوزيع التراكيب توزيعا هارمونيا ينتج عنه انطباع بصري مشابه للانطباع الذي يحدثه النص الشعري.

والملاحظ أن قصائد مقاليع تتغنى بشكل جلي بالانتفاضة وبيطولات راشقي الحجارة والمقلاع مما يجعل هذا الشعر متماسا مع الشعارات والبيانات السياسية التي تصدرها قيادة الانتفاضة حيناً أو التي يكتبها أطفال الحجارة على جدران البيوت والمحلات التجارية حيناً آخر. وقد تصف القصيدة الأساليب الوحشية التي يلجأ إليها الاحتلال لقمع المظاهرات، وصد الأطفال عن تحقيق غايتهم بإشعال الإطارات أو قذف الزجاجات الفارغة، وقد تصف مجنزرات العدو وآلياته وجنوده وقنابله الغازية السامة وقد تستخدم القصيدة لهجة حماسية عالية النبرة تتكئ على أفعال التحريض وكأنها تشجع الشبان على المقاومة والجماهير على مواصلة الانتفاضة:

أحيلي جنة المحتل نارا

واجعلها مقبرة^(٧)

شعر الانتفاضة والنقد

وقد لا ترضي هذه القصائد من الناحية الفنية بعض نقاد الشعر في عالمنا

العربي، تذرعا بالفنية والرمزية والصورة والحدائث إلى آخر ما هنالك من أقوال يكرّرونها ولهم بعض الحق في ذلك، ولكن الأمر مع قصيدة الانتفاضة مختلف، لأننا لا يمكن أن نطلب من الشاعر وهو في حمى القتال والمواجهة والتحريض أن يتأنق في لفظ، أو يتأنق في صورة، أو يستأنس بالرمز فالقصائد التي تنحو هذا المنحى تبدو في وهج الانتفاضة قصائد باردة، وهذا ما ينسحب على قصيدة الأميرة للشاعر حسين جميل البرغوثي الذي أحب أن يعبر عن الانتفاضة بقوالب شعرية إيماثية تعتمد الصور والرموز وتوظيف الأساطير فجاءت على غير القدر الذي كنا نرجوه من الجودة.

كيف ننسى في السجون
أن خلف القفل والمفتاح
لون الساحة المغمورة الآن بالدم
ان خلف الساحة الآن
ليلا كثيفا
وخلف الليل خيط ضياء من نجوم
بعيدة^(٣)

فالمقطع الذي قرأناه... وهو كسائر القصيدة... مقطع لا يحمل حرارة الثورة الجائعة التي تضج بها وهاد الضفة وروابي القطاع المحتلين، وهذا ما تجنبه شعراء آخرون هجموا على الموضوع مباشرة وأرادوا وبصوتهم الأدبي أن يكون صوتا تحريريا وتعبويا ففي قصيدة (النداء) لخليل توما وهو شاعر متمرس في النضال كان قد اختبر المعتقلات والسجون أياما طويلة نجده يستبشر فرحا ويهلل سعادة لانطلاق الانتفاضة ويفخر بها وبثوارها الشبان ويرى في حجارتهم نفحة من القادسية بل يرى في فجر الانتفاضة فجرا للتحرير والعودة واعلانا عن قيام الدولة.

الباب والمفتاح والفجر الجديد / هو جمرة الأجيال ما انطفأت ومن حطين
يورثها الشهيد إلى شهيد / الآن تنطقه الضحية سرها حجرا على خوذاتهم يتقافزون
كما القروء / الآن تعلن سرها الأرض التي :
صمتت طويلا

بين لؤم مهرج ، وحذاء طاغية بليد
الآن تتحطم القيود^(٤) .

معجم الانتفاضة الشعري

ويستخدم خليل توما ألفاظا من قاموس الانتفاضة كالراية، والعلم، والزجاجة والرصاص والحجر والفقراء وغير ذلك من ألفاظ تشهد بأن الحوار الذي تثيره هذه الأحداث في النفوس بدأ ينعكس في الشعر، ويستعمل سميح فرج ألفاظا قريبة من ألفاظ خليل توما، فيذكر الإذاعة والمدرسة، والحجر، والدفاتر والأظافر، والواجب البيتي وعجلات الكاوشوك والحقيبة والزجاج، وتحتل القصيدة شخصية الشاب الذي يترك الدراسة ليواجه الاحتلال بصدرة العاري، مؤكداً أن اليد تستطيع بل تقدر على كسر المخارز:

ويضحك البطل

من يصنع التاريخ باليدين غير

حنظلة

وغير كفه تحطم المخارز^(٥)

ويستبطن في القصيدة نموذجية الوطني المتمثل في الطالب وحواره مع الحقيقة وأشيائه الصغيرة مع دفتره وأقلامه وواجهه البيتي الذي أعده كما يجب ثم ينطلق في شوارع القطاع نائرا مرعدا مزبدا:

إذا تأخرت حقيقتي عن الرجوع

أو حدثوك عن شوارع القطاع

والصبية المجتأح صوته مشارف

السماء

أو جاء موعد الغداء

دون أن أزاحم الصغار أخوتي

لا تقلقي حقيقتي

فقد نعود في صحيفة موجوعة

وقد نعود في حكاية

يلفها الغبارُ والدخان^(٦).

نكون أو لا نكون

ويركز شاعر آخر وهو الشاعر علي الجريري على الشهداء وسقوطهم في ساحة
المجد، وحوارهم الذي ينتهي، فهم يبرزون في الليل من كل حارة، من كل زقاق،
ويحبون الأرض من جنوب لبنان إلى سيناء ولا يفرقون بين هذا الجزء أو ذاك من
الوطن، وهم غاضبون يوحدهم هم واحد هو كسر شوكة العدو، واجباره على
الرحيل وترك الأرض العربية حرة يرفرف فوقها علم فلسطين الخفاق، ويظل الشهداء
يتساقطون ويكتبون بالدم كلمتهم الأولى والأخيرة (اما نكون أو لا نكون).

اما نكون أولا

اما نكون آخرًا

معلم وطالب وكادح

وعامل يعبد الطريق

نلم جرح يومنا

نعبد الطريق بالحجارة

ونجمع الصفوف

في وحدة تتابع الطريق^(٧)

وهذا المقطع كما هو بين وواضح تنعكس فيه أفكار الانتفاضة وروح اصرارها
الشعبي والوطني فهي انتفاضة الشرائح، الاجتماعية كاملة من معلمين وطلبة وعمال
وكادحين وفلاحين بسطاء وحرفيين وتجار صغار، وهي انتفاضة تؤمن بأن طريق
الكفاح هذا أقصر الطرق لتحقيق الأهداف الوطنية السامية وسلاحها هو: الوحدة
التي تجمع الصفوف والحجارة التي تقذف بها العدو فهذه كلمات منتقاة بدقة لتعبر كل
كلمة منها عن جانب من فكر الانتفاضة. وفي قصيدة أخرى لفوزي البكري يلتقط

جانبا من هذا الفكر، فالانتفاضة بأعلامها وسياستها وبياناتها وفعاليتها كشفت زيف الاحتلال، وعرت رصيده الإرهابي، وأبرزت الشعب المتفرض من حيث أنه شعب ذو حقوق، ولا يطالب بغير حقه في تقرير مصيره، وهذه شعارات سياسية استطاع فوزي البكري أن يتمثلها في كلمات مختصرة يخاطب بها طفل الحجارة:

وقف العالم تلميذا
يتعلم من زلزالك
كيف يصان الإنسان
وكيف يصاغ الثوار
الغيرك يتوهج قرص الشمس
الغيرك يتلون قوس قزح
ويشدو عصفور الرفض
يا عقدا حجريا في عنق الأرض^(٨)

منشورات أم قصائد

وفي قصيدة أخرى (لفوزي البكري) يستحيل الشعر إلى منشورات علنية تخاطب الشعب الثائر ويخاطب العالم في كل مكان مؤكدا استمرار الانتفاضة وتجاوزها لكل وسائل القمع:

رغم الخسارة والمرارة والمضاضة
رغم الجراحات النزيفة
والكرامات المهاضة
سيظل أطفال المخيم يلعبون
كرة الحجارة هي الرياضة
ويصوبون ويهتفون
لا صوت يعلو
فوق صوت الانتفاضة^(٩).



وهذا يكون فوزي البكري قد جعل من القصيدة منشورا، وهذا المنشور لا يتعالى على الحدث في أي شيء: اللعب والرياضة وكرة الحجارة وتضمين النص لهتافات سياسية يرددها المتظاهرون أو يكتبونها على الجدران في السجون أو الشوارع، ويمجد ماجد أبو غوش الحجر فهو يتحول بل يجتاز سلسلة من التحولات تقرب الجماهير من هدفها الحقيقي.

يصير الحجر قذيفة

يصير الحجر طائرة

ويصير الحجر قابلة^(١٠)

أناشيد وألحان

ويلجأ الشاعر محمد آل رضوان إلى النشيد متخذا منه قالباً لحنيا لأغنية وطنية

تنعكس فيها روح الإصرار على رفض الاحتلال، ومحاولة تدميره غير مبال بالدم والتضحيات، فطريق النصر طريق معبد بالدم ولا شك:

هذا دمنا

يتفجر قنبلة حارقة

تعلن أنا لن نستسلم

هذا دمنا

متراس صامد لا يهزم

هذا دمنا يروي عنا

ما لا يدرك... أو ما لا يفهم

هذا دمنا... وعد

قدر... وأحلام اللقيا... وطريق

العودة

درب الدم^(١١).

الشعر العامي

في الجانب الآخر يضم ديوان (مقاليع) عددا من القصائد العامية للشاعر راجح السلفيتي، ويبدو أن لراجح السلفيتي تجربة شعرية بالعامية متميزة وهذا ما تفصح عنه قصيدة (الكف يكسر المخرز) وهي قصيدة مطولة وصفها بأنها ملحمة زجلية من وحي الانتفاضة ويستهل السلفيتي مطولته هذه بوصف القمع الفاشي الذي يمارسه الإسرائيليون كالمذابح التي عم خبرها الأقطار والدم الذي يخضب الطرقات والشوارع والشهداء الذين يسقطون في كل مكان على أيدي العدو حتى الطيور والحيوانات والأشجار والمنازل لم تسلم من طلقات العدو وبلدوزراته.

والذعر خلّى الحمايم تهجر الأسوار لما المجنزر غشي الحيطان يحيتها
من بعد ذبح الشهيد يهدموه الدار وللشارع أمه وأخوته العليج بليتها

ثم يصف السلفيتي في ملحمة هذه صدى الانتفاضة ففي كل مكان تصاعد

الشجب والاستنكار وشملت الاحتجاجات والمظاهرات التأديبية لشعبنا كل الدول بما فيها الدول الكبرى ثم يتطرق إلى جلسات مجلس الأمن واعتراض أمريكا على مشاريع القرارات باستخدام الفيتو.

وأمرىكا تُبرز وَحْدَهَا وتواجه التيار سلاح فيتو ودون احراج تلغيها

بعد ذلك يتناول السلفيتي الصمت العربي بشيء من الحزن والمرارة ولكنه مع هذا الصمت وهاته اللامبالاة لا يفقد الأمل فالثورة الشعبية هي ثورة في فلسطين ولكنها تستند إلى رصيدها وعمقها العربي . ويتطرق إلى مؤامرات الدول الأجنبية وخاصة بريطانيا وأوروبا الغربية على فلسطين وصمتها على المذابح والمجازر منذ أربعين سنة ، والصحوة التي دبت فيها مؤخرًا بعد أن لم يعد بالإمكان وقف الثورة الشعبية ، فهي ثورة الأبطال المتمردين الجبارين الذين يوقدون شعلة الثورة كلما حاول الآخرون إطفاءها أو تهدئة اللهب ، ويتصور شخصية البطل وأسرته قبل الخروج إلى ساحة القتال والمواجهة اليومية مع العدو ، فهو يودّع أباه ويودّع جده وأمه والكل يشجعه ويوصيه بعدم التراجع والصمود أمام مجازر الاحتلال وبنادق الصهيونية فهو لا يبالي بالموت في سبيل الانتفاضة لأنه إذا مات فسوف يكمل الآخرون المسيرة ، ويؤمن بأنه لا بد ظافر بإحدى الحسينين النصر أو الشهادة .

إما النصر ، وإما جنة الأبرار وفوج الي بعدنا يكمل الدرب نبديها
لما انخلقنا خلقنا ربنا أحرار درب المذلة حرام وعار نمشيها
ياطالب الحق خذها بالغضب واجبار لحقوق تؤخذ ولا في حد يعطيها^(١٢)

ويبدو أن راجح السلفيتي شاعر لديه اطلاع واسع على الشعر العربي القديم والحديث .

ولذلك نجد في أبياته العامة هذه اتساقا إيقاعيا وموسيقيا والتزاما بالقافية الواحدة قليلا ما تعثر على مثل له في الشعر العامي ، ومن حين لآخر تقتحم تراكيبه الشعرية كلمات فصيحة أو أداءات لا يمكن أن تبرز إلا لدى شاعر مثقف .

واحنا اجترحنا مثل يخلد مدى

الأعمار

الظلم نار ونيران الحق تحببها^(١٣).

فباستثناء الكلمة الأولى وهي تحريف عامي للضمير (نحن) نجد التركيب اللاحق تركيب فصيح غير أنه ليس معرباً وهذا كل ما في الأمر كما أن (الحكم) التي أوردتها الشاعر في ثنايا ملحمة هذه تذكرنا بكثير من أبيات الحكمة صياغة وفحوى، خذ مثلاً قوله:

من حاف بيته اللهب وأركان عير

الجار

بتصير داره سكن والريح تذرهما

فهذا داره سكن والريح تذرهما

فهذا قريب من قول زهير:

«ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم» وقوله:

اخترنا شموخ الموت ولا ظل الفرار

يا نرفع الرأس يا إما الوحل نطليها

يذكرنا بقول أبي فراس

ونحن أناس لا توسط بيننا

لنا الصدر دون العالمين أو القبر

ويوظف السلفيتي المثل الشعبي الدارج مثل (الكف ما يلاطم المخزن) غير أنه

هنا يثبت العكس لأن وحدة الصف والإصرار الوطني، وإرادة الصمود تصنع المستحيلات.

أثبت الكف، بوحدة الصف والإصرار

مش بس بقدر يلاطم مخز الغدار^(١٤)

بكسر المخرز وبكسر عتق باريها.

الشعر وأغاني الصبيان

ونلاحظ هنا أن الشاعر خرج على نمط البيت في ملحمة هذه فقد جعل من

البيت ثلاث شطرات ، اثنتان منها قافية واحدة وهي الراء المؤسسة على مد الألف ثم الشطرة الثالثة التي تحمل القافية والروى اللذين يميزان القصيدة مما يوحي بأن السلفيتي ليس مجرد ناظم وإنما هو مجتهد في إطار القصيدة المحكية ، وفي نموذج في آخر للسلفيتي نجد الغناء يغلب على الصور والمقاطع فهو يستخدم القالب اللحني الشعبي في نظم أغنيات يطلقها ليتغنى بها أطفال الحجارة ، يصفون الواقع الخاص بالانتفاضة من جهة ويحرضون أنفسهم وأصدقاءهم للصمود ولتقديم تضحيات أكبر بل يغنون غناء يتحدثون به غلاة الصهيونيين أمثال شامير ورايين ويذكرونهم بأسمائهم :

كل الشعب كبير صغير

بدنا تقرير المصير

غير منظمة التحرير

ما يمثل كلمتنا

غلاة الصهيونيين

ع السلم ما لهم نية

وباسم العشوائية

بسموا انتفاضتنا

احنا مش ارهابيين

الإرهابي هو رايين

غصبن عن الصهيونيين

بدنا نبلف غايتنا

وهذا إيقاع فيه وفرة من الموسيقى الحماسية التي تؤجج نفوس الصبيان وأطفال الحجارة وتجعلهم يقبلون على القتال بنفوس راضية مقتنعة بأهداف الثورة .

موازين النقد

والنظر في القصائد التي أشرنا إليها في هذا العرض المبسط للديوان يوضح أن

الانتفاضة بدأت تفرز من ظهرانيها أدبها الخاص، ولهذا الأدب تجلياته الجمالية والفكرية التي تختلف عن أدب آخر يقال أو ينشر في خارج الأرض الثائرة، فهنا لا يتأنق الشاعر ولا يتمهل ليرصف الألفاظ وينسج الصور الجميلة الأخاذة، بل نجد اهتمامه منصبا على أن يعبر ببساطة ووضوح عن وهج الثورة، وفعاليتها وشعاراتها، مباشرة لتصبح هذه الأبيات والمقاطع أغنيات في فهم الصغار والمقاتلين، ولذلك فإن هذه القصائد التي قد تتعثر في موازين النقد الأكاديمي أو النقد الشكلي الصارم تنجح نجاحا كبيرا إذا أخذت في إطارها الثقافي والسياسي القائم، وهذا يدعونا إلى حث النقاد العرب الآن لمراجعة حساباتهم في المعايير النقدية الدارجة والتطلع إلى قيم ومقاييس ومفاهيم جديدة تساعد النص المنتفض على احتلال موقعه المناسب من خريطة الإبداع الثقافي الجماهيري.

هوامش ومراجع

- (١) كتب البحث بعد مرور ١٤ شهرا على اندلاع الانتفاضة لذا اقتضى التنويه.
- (٢) مقال: قصائد من وحي الانتفاضة، اتحاد الكتاب الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة، القدس، ط الأولى، ١٩٨٨ ص ٩.
- (٣) مقال: ١٢
- (٤) المصدر السابق: ١٦
- (٥) مقال: ٢٨.
- (٦) مقال: ٢٩.
- (٧) مقال: ٣٠.
- (٨) المصدر نفسه: ٣٦ - ٣٧.
- (٩) المصدر نفسه: ٤٠.
- (١٠) مقال: ٤٣.
- (١١) المصدر نفسه: ٤٦.
- (١٢) مقال: ص ٢٢.
- (١٣) المصدر نفسه: ٢٣.
- (١٤) مقال: ٢٤.



في البرد كان الحجري

شعر: عبدالناصر صايع

في شهر كانون يجيء لنا الخبر
الجو مشحون يبشر بالمطر
مطر على الطرقات يحرف ما تبقى من
خطر
مطر وينطلق الشرر
طفل يعبيء بالحجارة صدره

وصبية ترخي ضفيريها
لتهتف باسم عاشقها القمر
حجرٌ، وتختل الموازين التي سادت
على أيدي التتر
حجرٌ، ويتنصر البشر
حجرٌ، وترفع راية
حجرٌ، وتعلو هامة
حجرٌ، وتسقط هيبة الغازين في وحل
الحفر .

هي فكرة قبل الدُخول إلى الحجر
هي خطوة تأتي ويتبعها حجر
هل كان في البدء الحجر ؟
هل كان في البدء المخيم ؟
كان في البدء الصفيح يسجل التاريخ
في أحلى صور :
وطنٌ تجسّد في نخيم
وطنٌ ملثم
وطنٌ يُشرع صدره العاري ليحتضن
الزمن
وطنٌ تلاحم في الوطن

صوب الجنود المنهكين وحقدتهم طفلٌ
تمترس
رَفَعَ الحواجز في الطريق وأشعل
النيران

أطلق ما تبقى في يديه من الحجارة
واختفى .

بين الزحام وهالة الجيش المكرّس .
طفلُ تمرّد واحتفى
بحجارة الوطن المقدّس

**

في البدء قد كان الحجر
بيتاً، إلهاً للعبادة
واليوم قد صار الحجر
رمزاً لتحقيق السيادة

**

طيرُ أبابيل يطيرُ كما الحمام
وحجارة السّجيل تسقطُ كالسّهام
حجرُ سيبني دَوْلَةً
ويزيلُ أنقاض الخيام
حجرٌ سيُنْقَلُ أُمَّةً
للتّور بعد ولوجها عصر الظّلام

**

في شهر كانون يجيء لنا الخبر
الجوّ مشحون يبشرُ بالمطر
مطرٌ على الطرقات يكسّ ما تبقى من
ضَجَرٍ
مطرٌ مطرٌ
حجرٌ حَجَرٌ
حجرٌ ويتنفّضُ الشّجر

في ساحة الشهداء أعراسا
وتلتحم الكواكب بالقمر
في البدء قد كان الحجر
عاش الحجر
عاش الحجر
عاش الحجر!

«معسكر أنصار ٣»



يا أجمل الشهداء

شعر: شكيب جهشان

أغمض له جفنيه ..

آه!!!

أغمض له جفنيه

واطبع

فوق هامته الآية قبلتين

يا أكرم الآباء

وازرع

في الثرى المخضوب من دمه
لمجد عطائه القدسي
إزرع بيرقين!!

*

يا أجمل الشهداء
لو ولد يظل . . وأغنية
يا أجمل الشهداء
تمتليء المدائن
والخزائن
والليالي الآتية

*

أغمض له جفنيه
كانت صورة الوطن الحبيب
وديدة في بؤبؤيه
أغمض له جفنيه
كانت شارة النصر المؤزر
تملأ الدنيا عليه . .

*

السنديانة لي
ويغتصبون بعض الفياء
عن رأسي
وبعض العافية
والبرتقالة لي
ويستلبون من شفقي

بعض عصيرها
والباطية

*

وطلعت من ذل المخيم مارداً أنا
وأنأ اقحوانة
وطلعت من وجه المخيم فارساً
آناً
وأنأ بيلسانه

*

لهفي عليك
تصير في أنصار ملحمة
وتحترف الرجولة
لهفي عليك
تدق في أنصار هيبته
وتعتنق البطولة

*

أغمض له جفنيه
واحمل للغد الآتي وصيته الأخيرة:
— يا شعبنا المعطاء
عبر جراحنا الحمراء
سوف تهل
دولتنا الأميرة

*

يا أكرم الآباء
يتنفض الثرى المخضوب من دمه

على فرح السنايل

يا أكرم الآباء

يتتصر الثرى المخضوب من دمه

على أعتى الجحافل

*

يا أجمل الشهداء حيُّ أنتَ

رغم أنوفهم

وسيوفهم

يا أجمل الشهداء حيُّ أنتَ

رغم قيودهم

وجنودهم

يا أجمل الشهداء حيُّ أنتَ

رغم عصيهم

وعديهم

يا أجمل الشهداء

حيُّ أنتَ، حيُّ

يا أجمل الشهداء حيُّ أنتَ

حيُّ أنتَ

حيُّ أنتَ

حي

(الناصرة)



الشهداء

شعر: نايف سليم

إلى الشهيد مراد الحمد الله ١٧
عنبتا ١ / ٢ / ١٩٨٨ .

يا بلدة الأبطال ما فرح العدا،
بالأمس، ما فرح العدا،
صخر الصدور تمردا
وانصب فولاذ الزنود، مجلجلا ملء
المدى
(فحق الجهاد وحق الفدا)
(وكانت حياة تسر الصديق
وكان ممات يغيب العدا).

إلى الشهيد إبراهيم أبو نحل ٣١
غزة ١٥ / ١ / ١٩٨٨ .

في القلب جرحك، يا أخي،
والجرح، أعرف، كيف أن الجرح
قاتل
لم يتركوا لك أو لنا،
درباً لنمشي فيه إلا:
قم وقاتل!

إلى الشهيد رامي العلكوك ١٥
دير البلح ٧ / ٢ / ١٩٨٨ .

لا وجهك الطفلي يا رامي
ولا قميصك المائي
ولا شذى الورود
حماك من برائن البارود
كم مرة، تكرر الموال:
ما دام الاجتلال،
فالأطفال،
سيقتلون،
أو يقاتلون.

إلى الشهيد صالح نوباني ٩٠
قباطيا ٧ / ٢ / ١٩٨٨ .

الشيخ فضل أن يموت ،
عن السكوت ، على المظالم
تسعون عاما ما اشتكى .
كره الحياة
وتلاحقت أنفاسه المتحشرات :
يا شعب قاوم
بالعشي وبالغداة !



(من ديوان : ١٠٠ قصيدة حب
لشعراء الانتفاضة للشاعر نايف سليم
«البقيعة» ، الذي يصدر قريبا) .



واستوت آياته..

شعر: المتوكل طه

كبرت رسائله
وودع أمه ليلا
وعاد إلى القيود
ووراؤه حلم
ورنات الليالي والدوالي،
وبدا كأغنية الحصار

يقبل الذكرى التي سكنته
بعد مدامعٍ
لزنقة الوعود،

ومضى
كموال يضمخ ليلنا
بنجومه ،
وأراد أن يعطي السلاسل حزنه
لكنها ردت به بالحزن المعتق ،
والخلود

ومضى يفتش
في غيوم السجن عن مطر جديد
ترتوي منه الزجاجات التي انفجرت
وضوعت الوجود

وأزاح عن أصحابه النوري
مزمار القعود
فغدت حروف عيونه
عشبا لأحداق القصائد
والمصاييح الصغيرة . .
فاستوت آياته :

أشهد ، زمان الانتفاضة وانتفض
هذا زمان للطفولة والحجارة
للمقاليع ، القناني ، والمتاريس
الجليلة والبنود

لم تكفه كل السنين العشر
والأطيار ترسم شكلها
خلف النوافذ
لم يسهّ أغنيات السجن للسجان
لم يهدأ على شفة الرعود
في صدره قامت ضلوع الجوع
تشحذ رحمها
لتضيء شباك الزيارة ..
أنه جوع المساجين الذي
جعلوه صبحا
للولادة والصمود
لم تشنه كل السنين العشر
في لحد الوصايا العشر:
لا ترحم ولا تطعم
ولا تعطي ولا تبقي
وصادر كل ما تلقى
وفتش أعين الأسرى
ورش الغاز في الغرفة
ولا تترك لهم شرفة
واشتم عرض واليهيم
وحطم رأس حاديهم ..
وفوق وصية التلمود
ألف وصية للموت تلفظها
زنازين مغلفة
وأقبية مدماة

وأعقاب البنادق
والجنود

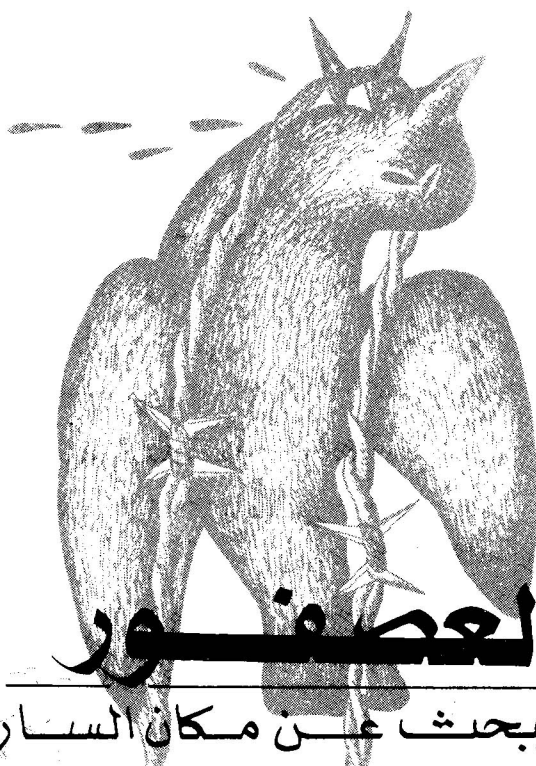
وعلى رمال الحجر
في أنصار
غنينا طويلا
للطيور السابحات،
لجرحنا، للعوسج المنثور خلف (الشبك)
للأنداء، للصحراء، للعشاق:
يا ليلي ويا سعدى،
ويا قيس الملووح
يا غزالا راكضا في الريح
لا تسكن فؤادا قد تعودته الشرور

لم تبكه الحسناء
من وجع لذيذ
في مزاج الليل داعبها،
لتسأل عن طفولتها التي
ستضيع في بلقيس
إن جاءت ولم يرجع،
فإن جاءت
فقولي:
يا ظلام السجن خيم فوق طفلتنا

ويا حبق الحكايا
لا تُجرح عاشقين
ووردة فوق المهود
يا آيتي الأولى على ألواح قلبي
يا بهي العشق،
عُدْ للأبيض المفضي
إلى ألق المهود
واكتب رسالتك الجديدة للصغار،
يا ليلك الأطفال، يا بلقيس
يا نغم الهزار
سيجيء فجر الإنتصار
وستشهدون نهاركم
والليل، يوما، لن، يعود
فلتشهدوا
هذا زمان الانتفاضة
أنه زمن الصعود

١٨ / ٦ / ٨٨

«معتقل انصار ٣»



شعر: عدنان ضميري

طار مأمون الصغير كقبرة
سلب الرعاة صغارها
فتعلقت تبني على عمود الكهرباء
بعد أن ضاقت عليها المقبرة
رفت على أصابعه الصغيرة ألوان
العلم
رفت كجناح القبرة
وتخضبت بدم الجرح الطويل

وتثاقل الحسون ينقل أطراف الخبر
ذهلت «صمود» وقالت : أنى ما الخبر
يا أيها العصفور كيف التوحد بين كنهه
بلّها

في الهواء الطلق وألوان العلم؟
وهل اخضرار جناحك البريّ ظلاً
للعلم .

وتقول اسقط اليوم يا مأمون
في لون المثلث بالعلم .
وتعطر الورد المكمل بالورود
بالدوالي واعتصار الزيت الزلال
يسيل

على دولاب المعصرة
وتجمعت كل الحمايم تسجع اللحن
الأخير

نشرت صمود ثيابها / متديلاً القاني
ونادت مثلك يا مأمون تراني والعلم؟
أواه مأمون الصغير

أواه مأمون المدثر بالعلم
أواه مأمون الكبير بجنحيك الأمل .

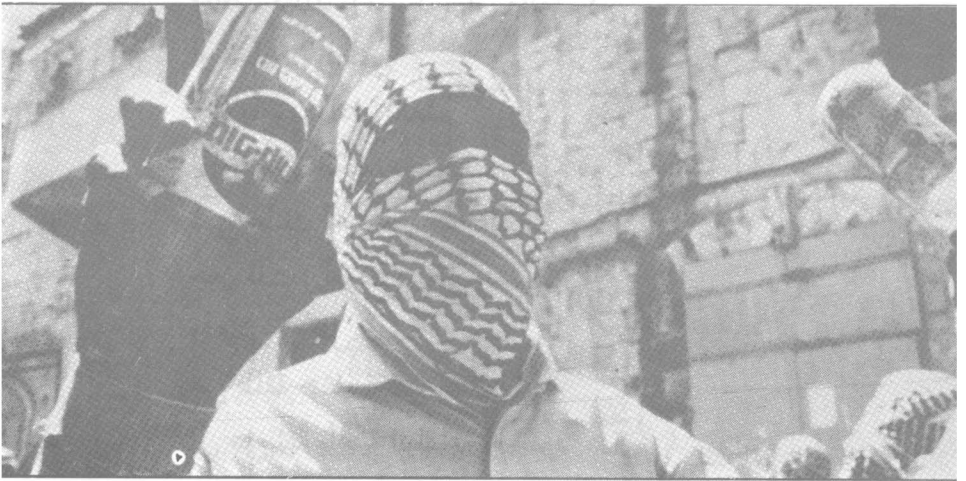
هفي عليك أخي من جبن الطغاة
حين قلت : أموت في ظل العلم

وأعيش في ظل العلم

هي طلقة حمقاء لم تفن العلم .

اني على ثقة بأغنية الطفولة والخلود

رسمت على شفة الصبية النادبة
لغة التحدي والتمرد رغم أنات
الرحيل
تلك الرصاصة حبلى في جباه
الصامدين
بسارية.. وعرس للعلم.
إنما الرصاصة قد بكت في ثغر
عصفور
يطن الموت حلما.. أو غفوة قصيدة
في غمرة الحمى.. وآهات الألم.
إني على ثقة حبيبي أن صوتك قد
سرى في رجة التيار
أقوى من صراخك في الألم
وتظل تبحث يا حبيبي عن فراشات
تموت على نور الفوانيس المكهربة
الضياء



وتظل تبحث عن مكان تغرس
الألوان فيه كألوان القزح
وتظل تبحث في العراء . .
تسقى دماؤك كل أعمدة الإنارة،
تورق الأسلاك أعلاما،
يخضر قرص الشمس
في اغماضة العينين في حلمك
ويبدل الدوري ريشه
وتصير تشبهك السماء .

*الاسم مأمون عبدالرحيم جراد
مكان الاستشهاد: الحارة الشرقية مدخل
عزبة الجراد - طولكرم
التاريخ ٣ / ٤ / ٨٨ .
عندما كان يرفع العلم على عمود
الكهرباء .
«معسكر أنصار ٣»



الخروج

إلى أنصار

شعر: المتوكل طه

لا تصدق قلم الروح وأحلام صباك
أن تنامت وردة منها
بلا رعب شذاك
ولهذا . . ليس ظلا ما تغنيه يداك
ما تغنيه هو الشريان في صحوته
الأولى
إذا انهار بأنصار
وأنصار مداك . .

والمدى رمل وناي،
سافرت فيه أغانينا، ولينا
واحة النار وموجات نذاك . .
والمدى «شبك»^(١) من الأسلاك
والخوف .
وأبراج من الموت،
وجيش في المتاهات
يخبّ السير مع حقد الهراوات
وغاز الدمع باد للهلاك،
والمدى عامود نور
في خطي عامود نور
خلفها أطلال «مسادا»
ورايات عداك . .
والمدى خيمات عشاق،
وعصفور،
وموال رؤاك . .
وقليل من طعام في «المجاشات»^(٢)
ولا ماء هناك،
و«مشاتيح»^(٣)، ترامت لغسيل الموت
كانت،
و«البطاطين»^(٤) غبار وذباب .
مزق لضلوع القمل قدوها،
وفي الليل صقيع ينخر العظم،
وفي الوجه حروق من فحيح الحر
والصحراء أفعى ذات أجراس

تراها وتراك
.. والمدى صحراء صحراء
وفي آب حريق ،
والحصى جمر ..
وطيور الأرض راحت تنقر الخبز
الذي
أساقط ..
والخيمات تغفو ..
تفرش الصحراء بالعشب ،
تزرع الأشجار صفا سابحا في الغيم ،
وتحيل الأرض عرشا لرباك ...
تنعف الدنيا صغارا يركضون ..
آه يا كل حناني والجنون
كيف أنت الآن يا نوار عمري
كيف أنت الآن يا ابني
ولماذا لم أر الضحكة في الصورة
كيف «هزار» و«ليلي» و«العيون»؟
هل تراهم يلعبون؟
هل تراهم كسروا القلب بكاء
والجفون
هل تراني سأراكم ذات يوم وترون؟
هل تصيخ السمع يا ابني؟
هل سأبقى يا حبيبي يا صغيري ، لا
أراك؟

... ويجيء الصوت أنداء من
القلب:

جميعاً سأراكم،
ليجيب الصمت، حتما سنراك...
فلتغن فيك أحلامك جهراً
ليس ظلاً ما تغنيه يداك
ما تغنيه هو النجم الذي غمس كفيه
بحناء شهيدين ففاض الضوء من
عينيه ليلاً،
ليراك

ما تغنيه هو العرس الذي فيه تقاسمنا
نزيف الإنتفاضات
ففي آب اشتعلنا..
في القرى الأعراس تعلو
والزغاريد على أبوابنا تعلو،
شهيد آخر يعلو،
هنا «أنصار» يعلو بشهيدين
فما أعلى سماك!!

... والمدى يهتف: ما زال يغني
أسعد الشوا وبسام^(٥)
وحبات الدم العندم لما سقطت
رسمت بالورد حد الدولة الأولى
أحاطتها بأثواب ملاك!!
.. من هنا
من حمأة البرد

ورشات الرصاص المر والمجنون
سوف تملؤ دولة الشعب
ونحكي قصة العشاق في المنفى
فأنصار انتفاضات تغني
لانتفاضات «هناك»^(٦)
... والمدى ما زال يمتد
وما زالت أناشيد الشهيدين
تصب الشمس في الصدر
وقلبي، آه يا «أنصار»
قلبي ما سلاك.



١٠ / ١٢ / ١٩٨٨ ، أنصار ٣ - النقب

*هوامش:

(١) شبك: السياج، وهي كلمة تستعمل في لغتنا المحكية.

(٢) المجاشات: الصواني التي يوضع فيها طعام المعتقلين، وهي كلمة عبرية.

(٣) مشاتيح: ألواح خشبية ينام عليها المعتقلون، وهي كلمة عبرية.

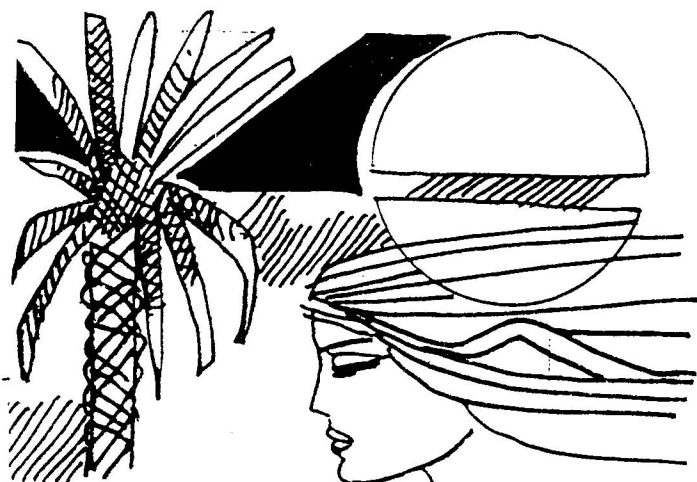
(٤) البطاطين: البطانيات (كلمة عامية).

(٥) أسعد الشوا وبسام السمودي: الشهيدان

اللذان سقطا برصاص الجنود الإسرائيليين في

معتقل أنصار ٣ بتاريخ ١٦ آب ١٩٨٨.

(٦) هناك: المقصود بها الضفة والقطاع.



لاحت تباشير العصبي

شعر: أسعد الأسعد

هذا زمانك يا شعب
رد الموت
يرتد، إن رمت الحياة
تجري الرياح كما شاءت يمينك
لا كما شاء الغزاة
ظنوا بأن الشمس
تحجبها العصي

وما دروا
لا عصا الجلاد ترهبنا
ولا صلف الطفلة
فالليل يحمل في أحشائه
لو يعلموا
الفجر نديا
يغمر الكون ضياه
هو التاريخ علمنا
رحل الغزاة جميعهم
فليقرأ المحتل
تاريخ البغاة
نيرون مات
ولما يزل
أحفاده
كما الخفافيش
تدب على هدى خطاه
عصف الالى بالغاصبين
ولسوف تعصف بالبقية
يا شعب
وتبني صرحك العالي لواه
حجر ومقلاع
وعزيمة مثل الحديد
تشق أعنة الفجر
وتبلغ مداه

لاحت تباشير الصباح
فشدوا الخطى
واقحموا الموت
ولا تمنوا الجباه
قريبا
واقرب مما تظن
قريبا يطل الصباح
وأنى أراه.

١٩٨٨ / ٢ / ٣



قصّة قصيرة

لأنني أحمل حبراً

بمّاتم : إبراهيم جواهر

توجهها إلى سريرها كانت قد سألت
أمها:

□ لماذا أخذ الجيش بابا؟

أجابتها أمها:

— سيعود عما قريب يا حبيبتى،

لا تقلقى، نامي.

عادت روان تطلب من أمها:

□ احكي لي يا ماما حكاية.

تنهدت الأم، ومسحت دموعه أخرى،

● استلقت «روان» الصغيرة في سريرها

وجلست أمها بجانبها وهي تداري دموعه

تحدرت من عينها. قالت أم-روان بصوت

خفيض:

— نامي يا حبيبتى، نامي.

قالت روان الصغيرة:

□ لن أنام قبل أن يحضر بابا،

واستدركت: أين بابا؟

لم يكن سؤالها الأول عن بابا، فقبل

وقالت :

— نامي يا حبيبي، غدا سأحكي لك .

عاندتها الصغيرة روان وقالت :

□ لا والله، اليوم أريد أن تحكي لي .

قالت الأم :

— عندما يعود بابا سيحكي لك ما

تريدين وكم تريدین من الحكايات .

سألت روان :

□ سيحكي عن الجيش؟ وسيقول لي

لماذا أخذوه من البيت؟

لم تسمعها الأم وصرحت مع خيالها

تستذكرهم حين حضروا يوم أمس .

كانت الساعة العاشرة ليلا، وكانت

روان نائمة وهي تبسم، ربما كانت

تحلم حلما سعيدا . وكان موسى زوجها

يحدثها عن الكمائن التي ينصبها

الملثمون للدوريات العسكرية وكيف

يقوم بعض الأطفال بمهمات الاستطلاع

والاستكشاف . فجأة بدأ الطرق عنيقا

على باب البيت : افتح .، افتح . . فتح

موسى الباب وتراجعت زوجته إلى

الخلف . نظرت من الشباك فرأت عددا

كبيرا من الجنود يحيطون بالمنزل

ووشوشات جهاز اللاسلكي تشق

سكون الليل . . حينها، وخزها قلبها

فعرفت أن زوجها سيعتقل .

تقدمت باتجاه الباب الذي كان قد

فتح حين دخل ضابط شرطة يطلب من

زوجها أن يرتدي ملابسه ويحضر بطاقة

هويته الشخصية، كان ودودا ولطيفا

ذلك الضابط وهو يطلب منه ذلك،

ارتدى زوجها ملابسه على عجل

وخرج، لحقته قائلة : خذ هذه الكنزة

الصوفية أيضا فالجو بارد في الخارج . .

وانحدرت دمعة دارتها بسرعة عن أعين

الجنود وهم يهيمون بالخروج .

في اليوم التالي، زارت المحامي

وأخبرته بتفاصيل اعتقال زوجها ووعداها

بزيارته ومعرفة مكان اعتقاله وبقية

التفاصيل .

أيام قليلة مرت وأخبرها المحامي

بعدها أن زوجها معتقل إداري مدة

سته شهور، ووعداها بتقديم استئناف

وطمأنها أنهم ربما يفرجون عنه بعد

الاستئناف أو يخفصون مدة الاعتقال

على الأقل .

. . انقضت الشهور الستة وروان

تسأل كل يوم عن أبيها : لماذا أخذوا أبي؟

ولماذا هو موجود في السجن؟ لم تكن

تعرف ما هو السجن قبل اعتقال أبيها،

واليوم تعرف أن السجن مكان يمنع

الآباء من رؤية أبنائهم فصارت تكره

السجن بقدر ما تحب أباها. أنا لا أحب السجن يا ماما، قالت لأمها: وحين سألتها أمها: لماذا يا روان؟ قالت: لأنه يمنعني من رؤية أبي.

.. انقضت الشهور الستة، وعاد أبو روان إلى البيت حيث استقبلته روان الصغيرة وأمها وجمع من الأصدقاء الذين احتشدوا بالقرب من بوابة السجن. وحين وصولهم جميعا إلى البيت بدأ الأصدقاء والمعارف يتوافدون، وبدأت الأسئلة تنهال بعد أن باركوا لروان وأمها بسلامة العودة:

— كيف الصحة.

— كيف أحوال الشباب؟

— لا.. الحمد لله، الصحة تمام.

— أين قضيت المدة؟

وظلت روان صامئة تحديق في وجه أبيها الذي بدا عليه الاصفرار والشحوب ولكنه ظل يتبسم، وحين صمت الموجودون لحظة ليبدأوا حديثا جديدا غير حديث الأسئلة والسلامات،

خرجت روان عن صمتها فسألت أباها: □ أين كنت يا بابا؟ أجابها:

— في السجن يا بابا.

□ لأنك ضربت على الجيش بالحجر؟! سايرها وهو يتبسم وقال:

— نعم، لأنني ضربت على الجيش بالحجر.

سرحت روان مع خيالها الصغير قليلا وكأنها تستذكر شيئا كادت تنساه، وقالت:

□ بابا، امبارح هرب العسكر مني. سألها باهتمام:

— لماذا يا بابا؟!

أجاب:

□ لأنني كنت احمل حجرا.

قبلها والدها بحب جارف. ابتسمت أمها وابتسم الحضور، وعاد الحديث يدور عن السجن والانتفاضة والأطفال. (القدس العربية)



بسلام الحج

بتلم : رياض بيدس

سياسفر إلى حيفا فرحت بذلك وأنفقت معه على السفر إلى حيفا.

كانت الطريق التي يجب أن يقطعها حتى يصل «كفار آتا» متفرعة ومتشعبة، فانتبهت طيلة الوقت وأرشدته قدر استطاعتي، قال ونحن نخرج من حدود البلد:

— لك أصدقاء كثيرون؟

سألته وأنا ابتسم: لم؟

قال محاولاً أن يكسر جو الصمت:

لاحظت أنك تسلم على الكثير من الناس... عندنا ليس كذلك. قد تقطن في البناية نفسها وأراك ولا أبادلك

● توقفت بجانب سيارة «فيات ١٢٧» زرقاء اللون، أطل السائق برأسه وسألني بكلمات عبرية عن الطريق التي يجب أن يسلكها كي يصل إلى «كفر آتا»، شرحت له، لكنه لم يستطع حصر كل التعرجات والطرق الضيقة في ذهنه. قلت له اني عازم على السفر أيضا إلى المكان ذاته. وسألته عن امكانية السفر معه وارشاده إلى الطريق. لم يبد الرجل معارضة أو حماسا زائدا بل هز رأسه إشارة إلى موافقته. وبعد تفكير قليل وجدت نفسي على المقعد الأمامي بجانبه. سألته عن وجهته فأخبرني أنه

التحية .

قلت ضاحكاً: الحقيقة، أني غررت بك، عما قليل سنصبح مثلكم . الذين سلمت عليهم ليسوا أصدقاء لي . إنهم معارف . لا أكثر ولا أقل .

وبدا أنه لم يفهم ما قلته تماماً: فسأل وهو يحاول أن يتفحصني من تحت لتحت :
لاشك أنه تربطك معهم أواصر صداقة معينة . .

وحين لاحظت أنه يتفحصني أدركت أنني تسرعت في طلبي منه السفر معه .
فالرجل يتكلم أكثر مما يجب وذلك لكي يسلي نفسه وينسى ما يفكر به :

— نعرف بعضنا البعض . . هذا كل ما في الأمر . في القرية يعرف الواحد الآخر، حتى لو لم يكن صديقه .

ابتسم بامتعاض وألقى نظرة خاطفة من الشباك، ثم التفت ناحيتي وهو يقول :

لكن بلدكم ليست قرية . . .
قاطعته : وليست مدينة كذلك . . .

قال مستفسراً : هل تعرف حلمي ؟

جئت عنده، فهو البلاط الذي سيبلغ بيتي الجديد . بصعوبة وجدت بيته .
جئت مع رقم البيت، فضحك الناس علي . . .
وحين قلت لهم حلمي البلاط

عرفوه بسرعة . ضحكت وأنا أقول
مازحاً: كلنا حلمي !

تساءل بجدية واستغراب : ماذا؟ !

قلت : ما حاجتك لرقم البيت ؟ لا أحد يعرف الرقم أو يستعمله عندنا . . هذا إذا كانت البيوت مرقمة أساساً .

كان الرجل ربع القامة ذا شعر خروبي ووجه أبيض مستدير ويضع نظارات شمسية سوداء على عينيه ويلبس ملابس رياضية خفيفة . وكانت حركاته شبه البهلوانية تدل على أنه غير مرتاح من سفرتي معه . وأبانت أسئلته وكثرة حكيه على توتر وتفحص وتشكك لدرجة أغاظتني . . لكنني تمالكت نفسي ولم أطلب منه التوقف، لكي أنزل، حاولت قدر استطاعتي أن أتجاهل حركاته لأتابع السفارة وأرى ما قد يحصل، خاصة وأن اضطرابه بلغ حداً غريباً: فحين صار «غير» صارت يده المرتجفة تضرب على ركبتي اليسرى في حركات مضطربة لا إرادية وهو يعتذر ويبلغ ريقه مبعوثاً .

كانت الطريق أمامه واضحة ككف اليد وباستطاعته السفر لوحده دون أية صعوبات وبأهون ما يكون . وحاجته إلي انتهت سألته : هل في السيارة عطب ما؟

فوجيء وزم شفتيه: لا. لم تسأل؟!
قلت: قصدت الغيارات.

ولم يفهم مرادي. . . وحين كدت أن
أطلب منه أن يتوقف لي لأنزل سألني في
اللحظة نفسها بلهجة غريبة: هل
تشتغل في حيفا؟

— اشتغل وأسكن في حيفا.

— أين تسكن؟

— في «ريمز»

التفت إليّ مشدوهاً، كما لم يتوقع
سكني في منطقة كهذه واستدرك قائلاً:
ليخفي ما كشف وجهه عنه وما دار في
داخله: حقاً في «ريمز» إنها منطقة جميلة
جداً!

ولم أشأ أن يزعجني تعبير وجهه
المتقنع. فقلت:

— منطقة جميلة، لكنني لا أستطيع المكوث
هناك نهار الجمعة ومطلع السبت أيضاً.
— لماذا؟

ضحكت وأنا أخبره بحقيقة الأمر:

مساء الجمعة بعد الرابعة أشعر بضيق
يصعب شرحه لك.

اهتم ورفع نظارتيه عن عينيه الزرقاوين
المتفحصتين: لماذا؟

— شعور شخصي جداً، الحركة تموت

وأتساءل بيني وبين نفسي: هل يهرب
سكان حيفا من حيفا مساء الجمعة؟
لذلك أشعر أن كل شيء يقبض على
صدري ولا أستطيع البقاء وأهرب
وأرجع نهار السبت بعد الظهر.

— وماذا يحدث في نهار السبت بعد
الظهر؟

تفحصته قليلاً، ثم قلت:

— يموت الهدوء الميت وتعود الحياة تدريجياً
إلى كل شيء.

— شعور غريب.

ولف السيارة صمت ثقيل. . . حاولت
أن ألهي نفسي بشيء. . . وأدركت أن فتح
كتاب في سيارة خصوصية تبدو قلة ذوق
خالصة، التفت إليه، فلاحظت أنه
يتفحص كيس النايلون الأسود الذي
كنت أضع فيه بعض الأغراض. . .
رفعت الكيس أمام ناظره وفتحته، لكي
أبدد قلقه. وتظاهرت أنني أفتش عن
غرض فيه. وسحبت كتاب أرسين لويين
وأخذت أقلب صفحاته، ثم أعدته إلى
الكيس. سحبت كعكتي عجوة وقدمت
له واحدة. اعتذر وقال أنه لا يأكل
الكعك. التهمت واحدة وشرعت أدور
الثانية في اصبعي وهو ينظر إليّ بين الفينة
والأخرى، ثم قربتها من فمي والتهمتها

دفعه واحده، وانكأت على المقعد محاولا
أن أفكر بشيء يريحني من نظراته التي
صارت حملا ثقيلا عليّ. ترددت في أن
أسأله عن حقيقة شعوره فيما إذا كان لا
يرغب أن أسافر معه. لكنني لم أقل شيئا
خوفا من أن أكون مخطئا أو أتصرف
بحماقة أندم عليها. بقيت صامتا، بينما
امتدت يده نحو المسجل وكبس الزر،
فانبعثت موسيقى خافتة خفتت من
الضغط، لكن يده امتدت ثانية وأطفأت
المسجل واحترت في أمره قال:
— حركة السير خفيفة في الشوارع نهار
السبت وتفحصني ثانية وامنت على قوله
مفسرا:

— لكن المناظر تتغير نهار السبت.
سأل باهتمام شديد:
— كيف هذا؟

وأدركت أنني يجب أن أغير من رتابة
الحوار الممل واهشم التوتر الذي سمم
الجو، فقلت بغضب مكتوم:
— أي تغيير بسيط يغير من طبيعة
المناظر.

قال بعصية ظاهرة: أحسدك على
عبريتك، لكنني لا أفهم ما تقصد في
كلامك..
قلت ببرود:

— أنا بالذات عبرتي ضعيفة..
قاطعي

ضعيفة؟ ليتني كنت أعرف العربية مثلما
تعرف العربية.
قلت: باستطاعتك أن تدرس العربية.

قال منزعجا: فات الوقت، كان يجب
أن أتعلم منذ زمن طويل، لو تعلمت
العربية استطعت أن أتخيل ما تفكر به
وما يدور في رأسك.
قلت له: هذا صعب.

— لم؟

— تعلم اللغة شيء وما أفكر به شيء
آخر.

يجوز. لكن كيف تتغير المناظر نهار
السبت؟

ضحكت وبدا هو بمنزعجا، فقلت: إذا
ما غيرت موضع شيء ما في بيتك فذلك
يغير من شكل ومنظر بيتك، أليس
كذلك؟

— بلى!

والشوارع شبه الفارغة يوم السبت تغير
من المناظر.

— لكن المناظر هي نفسها.

— الحركة والعجقة والضجة تغير من
الشكل.

— لا أفهمك.

— مثال آخر: لسيارتك مرآب. إذا أوقفت السيارة في المرآب صار للمرآب شكل آخر، وإذا كان المرآب فارغا فإنه يكتسب شكلا آخر. توافقي؟

— أقصد الامتلاء والفراغ.

— ليس ذلك بالضبط، لكن الضجة تكسر جمال المنظر.

— وما الذي تفضله أنت، مع أي لم أفهم كل الفكرة؟

— الامتلاء.

— لماذا؟

— تتوالد ألفة.

— وما علاقة الألفه بكل ذلك؟

واستطردت متفلسفا: أنت وأنا نخلق الألفه وليست الألفه هي التي نخلقنا. ما رأيك؟

فكّر وما نبست شفتاه بكلمة. قلت محاولا الاعتذار:

— لم أقصد الألفه بيني وبينك. لم نكد نتعرف على بعض واعتذر أن فهمتي خطأ. لكن الألفه بين الناس، حتى لو كانوا من جهات مختلفة، أمر على غاية من الأهمية.

قال بضيق: واضح من الحوار:

صحيح! وصمت، كأنه يأخذ مهلة

ليفكر بما قلته له: لكنه فكّ حزامه قليلاً وأعادته ثانية دون أن يفوه بكلمة. وأخذت أنا أراقب الطريق واللافتات أمامي.

قلت بعد لحظات من الصمت البغيض والحائق: بدأنا نطل على حيفا. الطريق سهلة الآن.

ولكي لا نخلد للصمت ويتكهرب الجو قلت له: صحيح طريق سهلة. هل سمعت عن الطائرات العملاقة؟ أتصور أنك سمعت عن هذا الأمر.

وأردفت باسما: محاولا أن أتجنب نظرات التفحص والتوتر وعدم الانسجام وقلت له:

— أنظر! انه لأمر على غاية من الروعة أن تنظر حواليك. لا أتصور أن أحدا يستطيع أن يقاوم جمال هذا المنظر الأخاذ. هذه السهول التي تمتد حوالينا وهذا العشب الأخضر وهذه المراعي وهذه الحيوانات الأليفة التي تنتشر على الأرض قبالتنا. كل ذلك يبعث في النفس راحة ما بعدها أخرى. كيف يستطيع الواحد أن يتملى من هذه المناظر التي تسكر وتطرب النفس القلقة؟

قال مقاطعا إياي:

— هل جنت؟ أين ترى كل ذلك؟! ما الذي حدث لك؟

استرخيت يائسا وتابعت قائلا متجاهلا تمتاته ونظراته وارتابكه:

أغصان الأشجار تتهايل من كثرة الشمار، والطيور لا تكف عن التغريد ليل نهار. والشمس لا تغيب عن هذه المنطقة. والناس يسرون زرافات ووحدا وهم على غاية من المودة والألفة والإنشراح والانطلاق. أنظر، أنظر إلى تلك السيدة المتصايبة ذات الشعر المصبوغ كيف تقبل زوجها قبلة سرمدية. لا بد أنهما تجاوزا المائة سنة. لكن الحب يشبب العجوز والكهل. الله على الحب العاصف! هلا توقفت قليلا لنشبع من هذه المناظر الجميلة. من كان يصدق أن كل هذه البقعة ستمتليء بكل هذه المناظر الساحرة؟ من كان يصدق أن المسالمين سيعيشون في هذا المكان الواسع؟ أنظر توقف قليلاً، هذا المنظر لا يتكرر، طرف السماء يعانق أرض هذه البقعة والناس يصعدون وينزلون، كما لو أنهم يسرون على الأرض.. هل هي الجنة؟ ما هذه العظمة؟

التفت الرجل ناحيتي مضطرباً ومحملاً في: يا لآلهة، ما الذي جرى

لك؟ هل تمزح؟ إذا كنت تمزح فذلك لا يضر. وإذا كنت شاعراً فإنه لا يضر أيضاً!.

قلت له بانزعاج: المشكلة أنك تقاطعني في عز اللحظة الجميلة. هل تعرف معنى هذا؟ أنك لا ترى ما أراه وأنا استغرب منك ومن تجاهلك التظاهري لكل المناظر الخلابة التي لم تلتفت إليها. انظر مثلاً إلى ذلك الجمل.. أنه يسير على العشب متمهلاً وينظر حوالبه متأسفاً غير مقدر الجمال والراحة. إنه يبحث عن الصحراء وهو موجود في الجنة. وأنه يلتفت حوالبه متفحصاً المكان. متمنياً في قرارة نفسه أن يتحول كل شيء في هذا المكان إلى صحراء وانظر إلى ذلك النمر وهو يبحث عن فريسة. مع أن اللحم الطازج أمامه بالأطنان. كل ذلك العشب لا يغريك بالنظر وكل تلك المياه الدفافة لا تثير اهتمامك وكل ذلك الجمال الأسر لا يرتبط الأرض بالسماء لا يشدك كيف ذلك؟

ولم أسمح له بالتكلم، بل أردفت مستطرداً وأنا أبتسم بفرح شديد: انظر إلى تلك الدراجات الصغيرة. ما أروعها. إنهم لا يسمحون بسير السيارات في هذه البقعة، منعاً للحوادث

لما رأيت كل ما رأيته ولتغير المنظر في
عينيك، لكن المنظر حافل بمختلف أنواع
الشجر والعشب والناس والحيوان. هل
تدرك الفرق؟ الاقتراب والتواصل
والعشب الأخضر والهدوء يولد كل هذا
الانسجام. هل أدركت الأمر جيدا؟

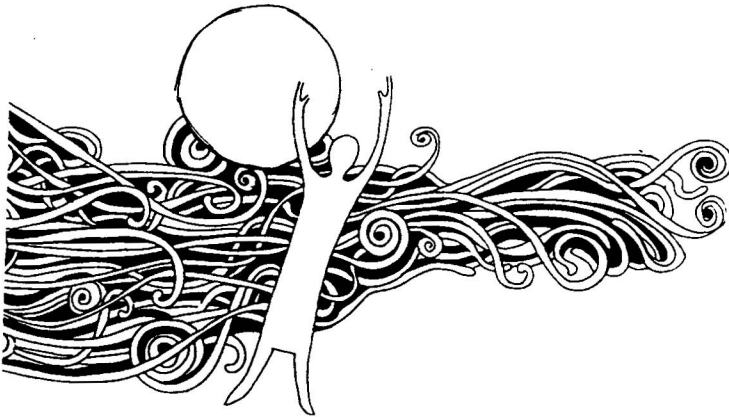
توقف مرة واحدة بجانب الطريق
وصاح غاضبا:

— لا أرى شيئا. تحملتك وتحملت
سخافاتك بما فيه الكفاية. هل تفهم.

ولا أدري كيف اقترب منا بساط
الريح وحملنا وأوصلنا إلى حيفا بسرعة
البرق.

(شفا عمرو)

التي تودي بأرواح الناس. أرواح الناس
هنا غالية. وهي الأهم، والأسد يعيش
مع الناس بأمان أليس ذلك جميلا؟ انظر
قليلا وحاذر. أن تصطدم بشيء، فلقد
أوشكنا أن نصل، وهذه البقعة لا تظهر
دائما أمام ناظريك كل مرة، لذا، أرجوك
أن لا تخسر رؤية أمر لا يتردد أمام
ناظريك دائما. أمعن النظر. توقف
قليلا، وفي الليل حدث عائلتك عن كل
ما حدث لك في هذا اليوم الفريد
العجلة من الشيطان. وباستطاعتنا أن
نصل بسرعة، لكن توقف قليلا وانظر.
ولتشعر بكل ذلك الانسجام والألفة.
هل توقفت؟ هذا هو التغير غير المتوقع.
هل تفهم هذا؟ لو كان هذا المكان فارغا



قصة قصيرة

« أم الشهيد »

بقلم: جمال بنورة

تبكوا فالبكاء يقلق الميت فلا يرتاح في قبره... « ثم تضيف بعد قليل... كأنما تتباهى أمام النساء، وهي تلتف بحطته التي كان يلبسها كلما خرج في مظاهرة: «يعني هو في أفضل من هالموتة...» ثم أردفت بعد قليل: «هذا شيء بده يصير... ما خلاش ولا يوم من عمره...»

وتتعجب النساء منها، وهن ينظرن إليها في اعجاب، وفي غيرة أحيانا، كأنما يحسدنها على كونها أم الشهيد، وتهمس احداهن لجارتها: «هذه المرأة جبارة... إنها تقول ذلك من نار قلبها...»

وسمع صوت هتاف وأناشيد قادمة

وهي تجلس بين النساء اللاتي أحطن بها... كانت تستعيد في ذهنها تفاصيل ما حدث، أحيانا وهي تتمتم، وأخرى بصوت مرتفع، وكأنما تحدث نفسها أو تحدث النساء اللاتي جئن لتعزيتهن... وشد أزرها... ولم تكن تريد أن يعزيبها أحد، فقد كانت تعزي نفسها والألم يعتصر فؤادها: «قولوا مبروك استشهد ابنك... هذا شهيد، ملاك عند ربه...» وتنحدر دموع صامتة من عيونهن، وهن يختلسن النظر إلى صورة الشهيد المعلقة فوق رأس الأم، وقد أحيطت بشريط أسود إلى جانب العلم الفلسطيني المثبت على الحائط. وبعض النساء تبكي حزنا عليها وإعجابا بشجاعتهن، فتقول: «لا

من بعيد . . كانت مسيرة جديدة تتجه نحو بيت الشهيد .

دخلت وفود جديدة إلى البيت، وقف الرجال في ساحة البيت لاستقبال القادمين من الرجال والشباب . واتجهت النساء والفتيات إلى الغرف الداخلية للتسليم على أم الشهيد وقريباته . كن يفتشن بعيونهن كأنما يتحزرن من تكون من هاته النساء ولا يجدن صعوبة في ذلك . . كانت كل واحدة منهن تريد أن تحظى بنظرة منها أو التسليم عليها . . لكي تستطيع أن تتحدث بذلك إلى غيرها من النساء .

جلست أم الشهيد ثانية، في مكانها المعتاد تحت صورة ابنها . . عدلت من وضع الحطة على رأسها . . وفتحت شفيتها كأنما لتستأنف قصة بدأتها من قبل ، أو لتعيد قصة ولدها من جديد على مسامع الوفود الجديدة . وتعلقت العيون بشفتيها، وهيمن على جو الغرفة صمت مهيب، قلق، متوتر، وإذا همست إحدى النساء بكلمة . . كانت تتجه إليها العيون موبخة، فتصمت لأن أم الشهيد تتحدث .

«عندما أراد تيسير الخروج من البيت

شعرت بهاجس خفي يحذرنى . شعرت أنه شيء غير محمود بده يحصل . . ناديت عليه : «تيسير . . خليك عندي اليوم . . التفت إلي . . ابتسم ابتسامة واسعة ملأت وجهه . . رأيت حول وجهه هالة من النور . . كأن الملائكة تحيط به . . قلت في نفسي :

«الملائكة سوف تحرسه» . رجع إلي . . عبطني بيديه الإثنتين . . وبدا يوسني من الخد هذا للخد هذا . . قلت له : «مالك يه . . ؟ بده يصير لك اشي لا سمح الله ؟» أثاربه كان يودع في كأنه عارف حاله بده يموت . قال لي : ما تخافيش علي . . يه . . بدي تظلي دايمًا رافعة راسك في . . قلت : «أنا دايمًا رافعة راسي فيك . . » قال : «إذا متت تبكيش علي . . بقولوا عنك مسكينة . . زغرقي ورايا وارفعي علامة النصر . . » غضبت منه وقلت : «ما تقوليش هالكلام . . سلامتك يه . . مئة سلامة . . انشالله عدوينك . . دير بالك منهم . . ما تخلهمش يصطادوك . . » .

صمتت قليلا كأنها تعبت من الكلام مسحت يدها على وجهها . . ثم استأنفت حديثها : «كان الله يرحمه دمه

فأير.. بده يموت.. من يوم ما بدت
الاتفاضة وقلبي زي النار عليه.. ما
فش مظاهرة ما اشتركش فيها.. وكل
يوم يمضي، ويعود إلى البيت سالما كأنه
عاد من تَمّ الموت.. أقول ابني أجاه عمر
جديد.. وأقول ابني خلاص بدش
يموت.. في المظاهرة الكبيرة وطخ
الرصاص.. طلعت وراه.. عملنا
مظاهرة نسائية، عشان نشغلهم عن
الشباب.. رشوا علينا الغاز حتى أعموا
عينينا.. قلت في نفسي «إذا عاش
اليوم.. ابني مش راح يموت.. ما
كنتش عايشة من الخوف عليه.. وكان
دائما يقول لي: «يمه لا أريدك أن
تحزني.. لا تستبعدي أني أجيك في يوم
محمول على الأعناق.. لأنني متوقع في كل
يوم أني أموت.. أنا قررت مصيري بدي
أظل أقاوم، اما النصر أو الشهادة.. لن
يردني شيء عن ذلك».

أستشهد.. إياك أن تضعفي أو تبكي..
سوف أحزن إذا فعلت ذلك..!!..
بعد لحظة صمت، كأنها تعبت..
فأخذت نفسا طويلا هو أقرب إلى التنهيد
الحزين، عاودت حديثها: «هاذول
الشباب لم يعد هناك ما يخيفهم.. إنهم
يخرجون إلى الشارع.. عشان يموتوا..
إن ما يعزيني ويخفف عني.. أنه هو اللي
اختار طريقه.. طريق الشهادة.. أنا
متأكدة أنه مش نادم على ما فعل.. ما
عادش الموت يخوف يا ناس.. هناك
أحيانا ما يجب الموت إلى الإنسان..
صحيح وإلا لأ...؟».

قالت النساء من حولها بصوت
واحد: بتحكي صحيح يا حجة..

واستأنفت: «كان عارف مصيره..
كان مصمم على الشهادة كان دائما يقول
«أحنا شباب.. إذا متنا.. هذا شرف
إلنا.. ليش خايقة علينا؟ ما فش إشي
نخاف عليه.. وما فش إشي
نخسره...». قلت من خوفي عليه:
«الحياة يمه.. هو في أعز من الحياة؟»
قاللي: الكرامة يمة.. حياتنا ماهاش
قيمة إذا بدنا نعيش بدون كرامة.. ما
بنقبلش نظل نعيش حياة ذل وإهانة مش

من هذاك اليوم اشي نخزني في
صدري.. قلت له وأنا ألاطفه وأعاتبه:
«أنا ما صدقت وأنا أشوفك شاب.. أنا
ما فرحتش فيك.. أنا بدي أفرح في يوم
عرسك.. تعرفن شوقاللي: قال يمه
الشهادة أحلى من العرس.. أريدك أن
تزردي وترفعي راية النصر عندما

كثير اللي بدنا نخسره في سبيل ما نتطلع عليه .. في سبيل حريتنا» .

يومها جلست الأم في الدار وقلبها على نار .. وشعرت من حديث ولدها أن المظاهرة ستكون حامية، وأن المجابهة ستكون شديدة. لاحظت الأبنة قلق أمها .. فانتقلت عدواه إليها - خشيت على أخيها .. أرادت أن تلحق به .. وضعت على عجل حذاء خفيفا في رجلها .. صاحت بها الأم :

- وين؟

- بدي أروح عالسوق اشترى خضرة ..

لاحظت الأم نبرة القلق في صوتها . قالت :

- طيب شوفي أخوكي وين راح .. وصيه يدير باله على نفسه .

هرولت مسرعة في أعقاب أخيها كالملك الحارس دون أن يلحظ ذلك .. كان الشباب يتجمعون من جميع الأنحاء .. وسار تيسير في مقدمتهم .. كانت المظاهرة على أشدها .. وكان الجنود بانتظار الشباب .. وهم يقتربون منهم .

صاح بهم تيسير عندما بدأ البعض يتراجع خوفا: «طاب الموت يا شباب .. ليس هناك ما نخسره غير ذلنا وقيودنا ..» تأهبوا لملاقاتهم .. وضعوا بنادقهم في حال استعداد .. «لويتأخر قليلا ..» فكرت .. صوب أحد الجنود بنديقيته .. «ابتعد يا تيسير» . لم يكن صوتها .. كان عقلها الذي يفكر .. «هل هولا يرى؟ .. لماذا لا يختبيء؟» في اللحظة الأخيرة: «احترس يا تيسير ..» .

التفت بحثا عن الصوت، وهو يهم بالابتعاد .. ولكن الرصاصة عاجلته .. كانت مصوبة نحو الصدر .. ولم تخطيء هدفها .. لكن الشاب شمل بنظرته وجوه الشباب، واستطاع أن يلفظ وصيته الأخيرة:

- «قتلوني يا شباب .. خذوا بثأري ..»

وقع أرضا، وأغمض عينيه ..

صاح أحد الشباب وهو يهرع إليه ويتفحصه:

- تيسير مات ..

في لحظة كانت أخته تقف فوق رأسه .. صاحت بكل قوتها:

- ما تقولوش مات .. قولوا استشهد .. !

واستأنفت الأم حديثها: «لما أجا الخبر،
كانه إشي هد حيلي.. طار عقلي من
راسي.. أخذت أبكي مثل المجنونة..
بعدين تذكرت كلامه إلي.. زغردت..
مرة أبكي.. ومرة أزغرت...».

بعد الصلاة عليه، توجهوا إلى
المقبرة، وغنت النساء في زفته، والجنود
يحيطون بهن، بعد أن فشلوا في اختطاف
جثته من الشباب والنساء..

زفه يا بيه وأطلعه عاليلة

لا هو عريس ولا العروس مجليه

طلت البارودة والسبع ما ظل
يا بوز البارودة من الندي مبتل

شلتك يا شاب تيسير شلتك
ليش ما أجت في العدو وخلتك

خيمة الشهيد خضرة ومخضبه بحنا
وإن ما أخذنا بثاره ما تصلح الحياة إلنا

ولم تتالك الأم نفسها من البكاء على
قبره.. وهتف الشباب بصوت واحد:
يا أم الشهيد وزغرتي
كل الشباب أولادك

نسيت الأم حزنها وهي تنظر إلى
الجنود يطوقون المكان واستعادت رباطة
جأشها.. رفعت رأسها بشموخ، وقالت
للنساء:

— لا تظهروا الحزن والخوف أمامهم..
لا تخلوهم يشمتوا فينا.. خلي زغاريتنا
تقهرهم.

أخذت الأم تزغرت بكل ما ملكت
من قوة.. ورافقتها النساء في إطلاق
الزغاريت..

بهت الجنود وهم ينظرون إلى
الجمع.. حتى أن بعضهم انتحى
جانبا، كأنما يتمنى نفسه أن يغور في
الأرض، أو يختفي من أمام هذا الجمع،
وصدرت إليهم الأوامر بالاستعداد،
فنسوا أفكارهم ومشاعرهم الخاصة،
واستعدوا والجمهور يغادر المقبرة..
وصاحت أخت الشهيد:

— ما تنسوش تيسير.. يا شباب..!

وانطلق هتاف الشباب:

لا إله إلا الله، والشهيد حبيب الله
باب الصخرة من حديد، ما بفتحته غير
الشهيد

وحدة وحدة وطنية، مسلمين ومسيحية



من الجنود. رغم ذلك طلعوا من المقبرة
لمواجهة الجنود مرة ثانية، فراجع
الجنود. . . وفتحوا لنا الطريق حتى وصلنا
البيت. . . لما دخلنا الدار ما كانش تيسر
معنا. . . أنا ما صدقش لحد هالقيت أنه
مش رايع يرجع. . . ها هم الشباب
ينشدون أمام البيت من يوم ما
استشهد. . . لا يتوقفون. . . كل ما
بسمعهم بحس أن تيسر بينهم، وإني إذا
خرجت أمام الدار بشوفه معهم. . .
وبدي أظل جالسة هانا عشان أظل

الت الأم :

- نسيت حزني وشعرت بخوف على
لشباب. . . عندما زغردت تحاوطوني
وقالوا :

« احنا أولادك » وهتفوا مرة ثانية

يا أم الشهيد وزغرقي

كل الشباب أولادك

وأردفت بصوت حنون :

- مش كلهم أولادنا. . . أنا شعرت بنوع

من التعويض والخوف عليهم. . . شعرت

أني بدي أحطهم في قلبي عشان أحيمهم

أخذت بعض النساء تبكي وتنشج .
قالت الأم :

— هذا شهيد بتعيطش عليه . .

همست امرأة لأخرى :

— كيف أمه بتبكيش عليه؟

قالت جارتها :

— لأن دمعته نشفت . .

قالت الأولى ودموعها تتساقط :

— لا هو أول شهيد . . ولا آخر شهيد . .

الله يستر من الأيام الجاية . .

قالت الأم أخيرا عندما نهضت النساء

للعودة إلى بيوتهن ، وهي تجول بنظراتها

بين الجميع ، وتستعد لاستقبال وفود

جديدة بدأت تدخل عليها البيت :

— يا ناس . . هذا مش ابني لحالي . .

هذا ابن فلسطين كلها . .

حاسة أنه موجود مع الشباب . . أكيد هو

مع الشباب . . يعيش في قلوبهم ، وفي

عقولهم . . الشهيد ماموت يا جماعة . .

أنا متأكدة أنه بشوفني الآن . .

ويسمعني . . فالشهداء أحياء لا

يموتون . . أليس كذلك؟؟؟

— طبعا . .

ردت النساء . .

أنهت الأم حديثها . ظلت الأنفاس

مبهورة . . وشيء من القلق والترقب علق

في الجو . . وهيمن صمت مهيب فوق

الرؤوس والأعين والشفاه ، كأنها تتشوق

لسماع المزيد . وجاءت وفود أخرى

للتعزية والتضامن . والآن ستبدأ الأسئلة

من جديد وستعيد الأم القصة مرة

ثانية . .





قصة قصيرة

يوم غائم

بقلم : حليلة جواهر

الشمس وكست الأرض والجدران بحلة
حمراء جميلة...»

وانساب صوت المذيع، يتلو الأخبار
برتابة وملاً صوت أرجاء البيت فامتزج
بصراخ «أمونة الصغيرة» معلنة عن
جوعها.

دقت إشارة ضبط الوقت تمام
السادسة صباحاً وانطلق صوت المذيع
جهوريا «سيداتي سادتي أحبيكم وأقدم
لكم نشرة الأخبار الأولى لهذا اليوم
العاشر من شباط، تفيد الأنباء أن درجة
الحرارة اليوم ارتفعت ارتفاعاً شديداً
أعلى من معدلها السنوي، حيث سطعت

تركت هذه الضجة الصاخبة
وهرولت إلى السطح، فالיום درجة
الحرارة عالية وهذه فرصة لا تعوض يجب
أن نتمتع بأشعة الشمس بل يجب أن
ننصهر بحرارتها المرتفعة حتى العظم ..
والكل صغارا وكبارا نساء ورجالا في
حركة دؤوبة سريعة، وراحت إطارات
الكاوتشوك تتدحرج على الطرقات،
لحظات .. ترتفع حرارتها وتتأجج
لهيها، «هاج الناس وماجوا» غلى الدم
في عروقي، امتلأ صدري غضبا
وحماسة، أقفلت باب السطح، وركضت
نحو الباب الخارجي، لا تزال «أمونتي»
تصرخ ..

— أمونة حبيتي، أهذا وقت البكاء؟! ..

أعددت زجاجة الحليب بسرعة
وأعطيتها إياها .. حملت كيسا وزجاجة
عطر وخرجت ..

توسطت الشمس السماء وارتفعت
درجة الحرارة شيئا فشيئا، ازداد
اللهيب، لحظات .. تحركت غيمة نحو
الشمس، التهاب الناس .. التحموا ..
كروا .. وكروا، دلقوا الماء فوق كريات
تساقطت حولهم في الطرقات وتصببوا
عرقا ودموعا ودماء، مدوا أيديهم نحو
الغيمة، عشرات الأيدي امتدت كيد

واحدة، انحسرت الغيمة .. مدوا
أياديهم .. تقلصت .. مدوا ..
تلاشت .. تلاشت و .. اختفت هلل
الناس مسحوا عيونهم وأنوفهم تزودوا
بالعطر ومدوا .. مدوا كالبحر، علا
صوتهم ومدوا، ارتفع الصوت، وعلا،
سجلته آلات صغيرة وكبيرة وتناثرت
موجاته عبر الأثير ليطوف العالم .. و ..
غيمة سوداء كبيرة كبيرة، غيوم زحفت
بكل ثقلها، حجبت بعضا من أشعة
الشمس وتقدمت، ازداد مد الناس
وازداد ثقل الغيوم، نزلت كريات الثلج
بمختلف أنواعها، تبللت وجوه الناس ولم
يعد العطر ينفع، ولا الأكياس
الملتئة .. و .. بدأوا بالجزر ..
الجزر .. لا يهم فالبحر يعيش حالة
الجزر استعدادا لمد عميق .. خطوة
خطوة إلى الوراء من أجل اثنتين إلى
الأمام .. هيا فالجزر الآن مطلوب،
وكفتا الميزان غير متعادلتين ..

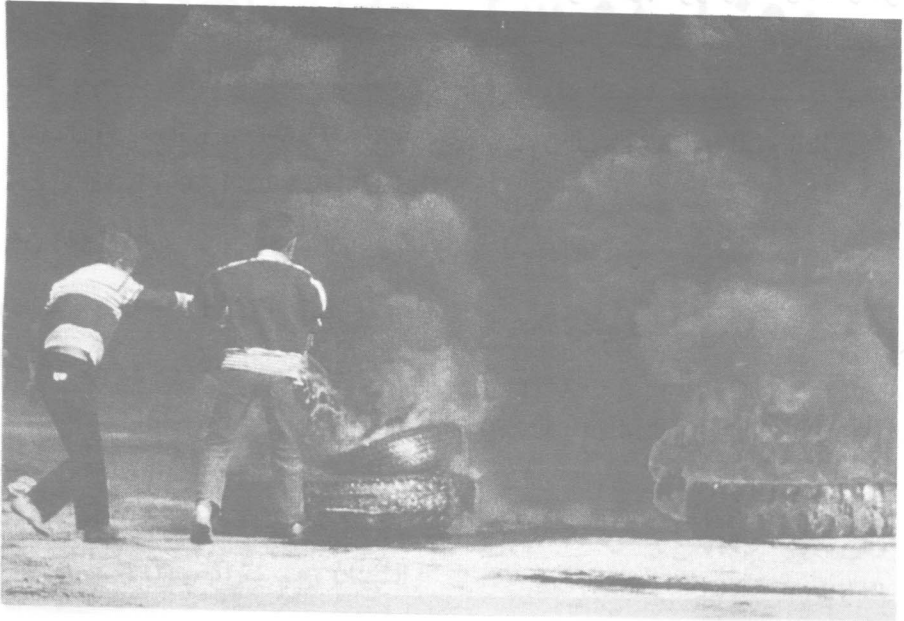
غيوم كثيفة تغطي السماء .. هدرت
وأرعدت ونزلت ثلوجها كثيفة غزيرة في
كل اتجاه .. طرقت باب البيت خلفي
وأغلقتة جيدا، ازدادت دموعي داخل
البيت .. فهو مليء بالرائحة الكريهة ..
وتهادى إلى سمعي صوت أمونة وقد

تحول إلى أنين.. هرعت إلى غرفة
الأولاد.. صدمني المنظر، امتلأت
غضباً.. ماذا أفعل؟!.. وددت لو
أطير.. أقفز من الشباك وأنادي أحد
مصورى التلفزيون في الخارج، ليرى
ويسمع قيس ابن الخامسة، يمسك برأسي
بصل، يضع أحدهما عند أنفه، والآخر
على أنف أخته أمينة، ابنة السبعة
شهور.

اللعة على كل الغيوم.. يا إلهي ماذا
أفعل الآن، الأولاد في خطر والغيوم
كثيفة خارج البيت. دلقت العطر على
وجهيهما، ناولت قيس الزجاجاة وأوقفته

قرب النافذة.. حملت أمونة.. طرق
الباب بعنف.. سعلت الصغيرة بقوة..
تقيأت.. ازداد الطرق.. تساقط
الزجاج.. و.. «ماذا تقول الريح لطفل
يصيح» هرع قيس، أمسك بثوبي
والتصق بي بقوة.. علا الصوت في
الخارج مهددا.. ازداد سعال أمونة
والتصق قيس بي:

— لا تفتحي يا أمي.. قولي لهم أنا لا
أذهب إلى المدرسة.. قولي لهم أمونة
كانت في بطنك صغيرة لا تمشي.
— لا تخف يا حبيبي لا بد من فتح
الباب.



اندفع أولهم كالثور في حلبة المصارعة
مرعدا.. . ومحملقا بشراسة.. . دفعني
وهرول داخل البيت.. . أين هم؟.. .
أين هم؟.. . تبعه بقية القطيع.. . لحقت
بهم، لا بد وأن أتابع تحركاتهم في مثل
هذه الحالة، فهم كالحية لا أمان لهم.

صعد أحدهم إلى السطح ووقفنا
جميعا في انتظار عودته، مد أحدهم يده
باتجاه أمونة أراد مداعبتها:
— حلوة.. . شعرها كثيف وجميل، كم
عمرها؟؟

ابتعدت بها بحركات غاضبة:
«ملعونة عظام جدك، ألك عين ترى
جمال الأطفال.. . قلت ذلك لنفسى ثم
أشرت إلى وجه الصغيرة:
— ألا يعجبك هذا المنظر أيضا.. . دموع
وسعال وقيء وأنين.. . حقا أنه منظر
جميل، اذهبوا وحدثوا نساءكم وأطفالكم
عن هذه المناظر.

تكلم باللغة الأخرى هذه المرة كلاما
لم أفهمه لكنني شممت منه رائحة الشتيمة
والزجر. نزل من كان على السطح ملوحا
بعضاه وقال:
— هات بوية واخرجي — ترجها لي من
يتكلم العربية.
— وماذا أفعل بهؤلاء ألا ترى؟!!!.

فهم ما أقول.. . بصق.. . شتم.. .
ضرب عصا.. . اثنتان.. . دفع قيس.. .
تساقط لوحان من الزجاج.. . اندلقت
تنكة الزيت.. . و.. . خرجوا.

زاروا بيوت القرية بيتا بيتا، وحيوها
بنفس التحية، ولما لم يجدوا أحدا مسحوا
ونظفوا.. . زجروا وهددوا.. . وغلوا
كالمرجل من الغيظ.. . بينما كان الشباب
في طرف القرية بعيدا يجلسون بهدوء
يقيمون اليوم ويخططون لليوم التالي.



قصّة قصيرة

« وفاء تُفشِل خطة العقيد »

بقلم: محمد أبو النصر

وفي هذه الأثناء تملل ضياء «أخوها»
من تحت الغطاء الأمر الذي جعلها
تقول:

— انفض يا ضياء... انفض أيها
الكسلان ألم تسمع وقع أقدم أصحابك
الشبان وهم يتراکضون وسط شوارع

نهضت وفاء من نومها مبكرة أكثر مما
هو معتاد صبيحة النهار... وبعد أن
بللت وجهها الخمرى الطافح بالنضارة
بماء الصنبور البارد أحست وفاء بالنشوة
وهي تجفف وجهها بفوطاة القطن
الدافئة...

المخيم ومن بين أزقته؟؟ إنهم ما فتثوا
يتهيأون وأنت ما زلت نائما.. انهض
وكفأك تمللما أي والله حتى الفراش قد
ضاق من تكاسلك.

رفع ضياء رأسه ثم سأل!

— ماذا عن اليوم يا وفاء.. أهو اضراب
شامل أم يوم مواجهة وتصدي؟؟

— بالنسبة لي الأمر سيان.. المهم عندي
هو أن تنهض وتستعد للمشاركة.

انتفض ضياء من فراشه منقبضا على
موضع حذائه وهو يقول:

— الحقيني إذن بكوب كبير من شايبك
الساخن والشهي يا وفاء.. ورجائي أن
تزيدي من حلاوته.

منذ ساعات صباح نهار ذلك اليوم
الكانوني البارد وسكان المخيم ما لبثوا
يتحفزون استعدادا لمواجهة قابل
الأحداث.. ونساء الأحياء المتاخمة
لمركز الأحداث ونواحي الساحات
ومفارق الطرقات، يتهممن للمشاركة في
المظاهرات ومساعدة المهاجمين أو الفارين
من مطاردة الجنود وآلياتهم..

وأم أحمد تلك المرأة العظيمة التي في
الأسبوع الماضي فقط كانت قد ودعت
ابنها البكر أحمد ودعته شهيدا عند

مشارف مقبرة الشهداء بدم بارد وعطاء
زائد ما فتئت تجوب طرقات الحي وأزقته
الرفيعة منبهة جاراتها لتلبية للنداء..
— هيا يا بنات هيا —

قالت أم أحمد مستحثة جاراتها..

— النسوة عليهن التجمع في مطرحين..
الأول قرب المسجد الكبير والثاني عند
صف المدارس المطلة على «بركة أبو
راشد»...

هيا يا جميلة هيا.. أنت يا وفاء، هل
أيقظت أخاك ضياء؟؟

— أجل يا خالتي أم أحمد.. لقد احتسى
شايه وذهب.

— الحقني بي إذن وهاتي معك آمال والهام
وسناء وباقي البنات.

كانت المداخل الرئيسية للمخيم
ومنافذه الفرعية قد سدت وأحكم
إغلاقها بالحجارة والمتاريس وذلك منذ
ساعات الليل الفائت.

لذا وما ان أكمل الشبان تجمعهم
وانتشارهم حتى سمع صوت أحدهم
ينبثق قويا من وراء ثقب لثامه:

— كل شيء على مايرام يا فهد..!!
— وماذا تنتظرون؟! أشعلوا الاطارات
إذن.. ثم اجعلوا من دخانها زعوطا

يدغدغ أنوف ثكناتهم المحيطة بالجوار.

قبل أن يحل الضحى كان الغضب
يعم سماء غزة وأفق مخيماتها . . وكانت
أعمدة الدخان تتصاعد في أعالي الأفق
الواطيء وتندمج ببعضها مشكلة كتلا
كبيرة من الغيم الأسود الزاحف نحو
الشمال . . وفي غرفة القيادة التابعة لأكبر
الثكنات العسكرية التي تركزت حديثا
في المرتفعات المطلة على «مخيم جباليا»
من جهة الشرق جلس كبير الضباط
الذي يحمل على كتفيه رتبة «عقيد» وهو
حائر الذهن مهموما من جراء سماعه
للتقارير الآتية عبر أجهزة الاتصال والتي
على أثرها أمر باستدعاء كبار ضباطه
حيث بدأ على الفور بإسداء أوامره
إليهم .

— أنت يا إيتان، عليك أولا الاستيلاء
على سيارة عربية، وتحمل رقما عربيا،
ومن ثم تملأها بعدد من جنودك المدربين
والذين سيلبسون الملابس المدنية ذات
الطابع العربي .

أما باقي الضباط فعليهم اقتحام
مداخل المخيم بكل ما أوتوا من قوة
وكفاءة، وما أن تبدأ سيارات الإسعاف
والسيارات العربية بنقل الجرحى والقتلى

إلى مستشفيات غزة عليك أنت يا إيتان
أن ترفع فوق مقدمة سيارتك المسببة راية
بيضاء . . أي تماما مثلما يفعل العرب
وتتظاهر كما لو أنك سائق عربي ينقل
برفق مصابا أو جريحا .

وما أن تصل إلى مقربة من المتراس
الرئيسي الذي يتمركز عنده شبان
الانتفاضة ملثمو الوجوه تظاهر بطلب
المساعدة . . وحينما تمس أن الحيلة قد
انطلت عليهم سارع أنت وجنودك
بالانقضاض عليهم والإمساك بهم .

نحن سوف نراقب تحركك وفور
بدئك بالتنفيذ نكون قد وصلناك هذا هو
كنه خطتي .

هيا . . تفضلوا بالانصراف وباشروا
 بالتنفيذ .

بدأ الجنود هجومهم وشرع الأولاد
بقذفهم ودفاعهم . . ومن بين أصوات
الطلاقات وقنابل الغازات سمعت
أصوات الصراخ والضجيج وشارات
الاستغاثة وزوامير سيارات الإسعاف . .
التي أخذت تنقل المصابين والجرحى .
— أنت أيها السائق اذهب إلى حيث يقع
منزل الدكتور مسار . . هناك ينتظرك

قراية العشرة مصابين .. هيا أسرع
هلم ..

صرخت أم أحمد بسائق سيارة
الإسعاف التابعة لوكالة الغوث ..

— هائذا في طريقي إلى هناك يا خالة ..

ومن وسط الزحام والصراخ والنواح
سمعت أم أحمد صوت سناء ينادياها ..

— تعالي يا خالتي أم أحمد .. تعالي
معي .. لقد أصاب العساكر بالرصاص

الحي ثلاثة شبان .. انه ضياء يا
خالتي .. ضياء ورفيقته عماد وإياد.

— وهل أسعفهم أحد يا سناء؟!

— لقد تركت وفاء عندهم بالقرب من
مسجد الخلفاء ..

— اسبقيني إذن ريثما يتسنى لي العثور على
سيارة.

كانت الطريق المذهبة جنوبا نحو
قلب غزة، هي المنفذ الوحيد الذي يمكن
من خلاله نقل وتزوير السيارات الحاملة
لجرحى ومصابي انتفاضة مخيم جباليا
وبيت حانون وباقي الجوار. لذا وما أن
مرت سيارة الإسعاف المقلّة الجرحى
الثلاثة، حيث كان يرافقهم فيها سناء
وأم أحمد ووفاء وذلك بالقرب من
«المصنع العربي لتعبئة ثمار الحمضيات»

حتى رأت وفاء قافلة عسكرية كبيرة
تتقدمها بكثير سيارة عربية بيضاء وتحمل
رقما عربيا وبداخلها أشخاص
مسلحون ...

شهقت البنت وقالت ودلالات الريبة
تعتلي سحتها انظري يا سناء انظري يا
أخت.

— آها .. إنهم ينون خداع اخوتنا ...

عند وصول سيارة الإسعاف مفرق
الطرق الفاصل ما بين حي «الشجاعية»
وحي «التفاح» حيث كانت تنتصب
المتاريس ومن حولها يتمركز أكبر عدد من
فرسان الأمل فرسان الانتفاضة المقنعين
طفق هؤلاء يفتحون الطريق لسيارة
الإسعاف ... عندئذ أمرت وفاء السائق
بالتريث قليلا ثم راحت تخاطب الشبان
بقولها!

— اسمعوا يا أخوان .. ثمة سيارة عربية
بيضاء وتحمل رقما عربيا .. آتية من
ورائنا وهي ترفع أيضا في مقدمتها راية
بيضاء، احذروا منها .. إنها سيارة
مشبوهة لأنها مملوءة بالعسكر .. انهم
يرتدون ملابس مدنية حتى أن بعضهم
يغطي رأسه بالكوفية والعقال العربي ..
هيا يا أخوتي .. خذوا احتياطاتكم

وتهاوا.

واصلت سيارة الإسعاف رحلتها،
شاقة طريقها نحو المستشفى بينما أخذت
السيارة البيضاء تقترب، وقبل أن يتمكن
أي من ركاها من الهبوط كانت حجارة
الفرسان قد أمطرتها قذفا وغضبا.

وفي لمح البصر. انسل الشبان من
خلف متاريسهم منسحبين، وذلك فور
أن وصلت القافلة وسيارات الإسعاف
العسكرية التي كان أول من دلف منها
شخص العقيد المزينة بذلته العسكرية

بالنياشين. . وبينما انشغل الطاقم الطبي
بإسعاف الجرحى فقد راح العقيد يحلق
بهوس مجنون في وجه «ايتان» الذي لوثت
الدماء النازقة من رأسه صفحة وجهه.

— ولكن قل بربك يا ايتان. . كيف
عرف الشبان بأنكم لستم عربا. . !!؟
«سأل العقيد».

— لقد أفشلت النسوة الفلسطينيات
خطتك يا حضرة العقيد.

نخيم جباليا في ٣١ يناير — كانون الثاني
سنة ١٩٨٩.





بقلم: محمد أيوب

أعيذها نظرات منك صادقة

أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
«المتنبى»

أخذ به الغضب كل مأخذ.. صاح
بأمي:

- اسمعي يا ولية.. ابنك لازم يفهم
أن الكلمة كلمتي في هذا البيت.

انكمشت أمي حتى صارت في ربع
ثيابها.. نظرت إلي نظرة عتاب ولم تنبس
بينت شفة.

نفخ يعقوب شذقيه ونظر إلى عضلاته
بخيلاء وهب واقفا.. مشى بضع

توفي أبي قهرا، بعد أن أجبر أن يتخلى
عن زوجته - التي هي أمي - لرجل
مفتر. وكنت لا أزال طفلا حين حدث
هذا، ولكني لا زلت أذكره وكأنه حدث
الآن، فذاكرة الطفل أقوى من
الحاسوب.

جلس يعقوب فوق كرسي من
الخشب المتين.. قتل شارببيه وتجشأ
بفضاظة.. نفخ الهواء من منخرينه، وقد

خطوات . . ثم توقف فجأة ليقول :

— أنت يا ولد . . أنا أبقيتك هنا حتى لا يقول الناس أنني إنسان غليظ الطبع قاس .

ثم استطرد قائلاً :

لكن وجودك هنا لا يعطيك أي حق . . أستطيع أن أقذف بك إلى الشارع لتلحق بأخوتك . . أستطيع أن أمسحك من الوجود . .

أنت فاهم ؟

ثم تجشأ وقتل شاربيه كأغما ليؤكد كلامه .
انسابت ابتسامة صغيرة فوق شفتي . .
فقد داهمتني تلك الصورة التي طالما حملتها في مخيلتي ليعقوب . . صورة قدم ضخمة داخل حذاء ضيق يسبب لها ورماً يزيد ضخامتها غير الطبيعية .

لاحظ يعقوب انسياب الإبتسامة فاشتعل غضباً وأرغى وازبد . . التفت إلى أمي صائحاً :

— شايقة المحروس تبعك . . انه يسخر مني . . أنا الذي أبقيته حتى لا يقال أنني قاس . . ولكن لا بأس . . ها قد بدأ يكبر . . ولا بد له أن يبحث عن مكان آخر .

اندفعت أمي نحوي . احتضنتني

بعنف . تشبث بي . صفعها ، بصق في وجهها . أصابني رذاذ البصاق . . مسحته بطرف كمي . شعرت بقرف شديد . . فأنا أعتقد — ومنذ استولى يعقوب على أمي — أن يعقوب كله دنس يجب أن نتطهر منه . . ولكن كيف ؟

انكمشت أمي ، ولم تجرؤ على مسح البصاق الذي غطى وجهها ، فأخذت أمسح الدنس المدنس .

اندفع يعقوب نحوي كالثور الهائج .
أطلقتني أمي . . أطلقت لي العنان . . قفزت بعيداً عنه . . أمسك منفضة سجائر . . قذفني بها . . اصطدمت المنفضة بالحائط فحفرت فيه حفرة ، وانكسرت . . اغتاض . . احتاج أكثر . . جرى ورائي . . جريت أمامه . . لا بد أن أثبت عكس قول المتنبئ . . لا بد أن أثبت أنه ورم لا شحم حقيقي فيه . . كرة منفوخة تقفز في الهواء . . تصدر أصواتاً . . ترتطم هنا وهناك . فتخيف الطيور الفزعة أصلاً ، لكن مسباراً بسيطاً يمكن أن يثقبها ، دنس . . يخرج الهواء بصوت مسموع لينكشف الورم على حقيقته . . ورماً لا أكثر .

أخذ يعقوب يجري ويلهث . . يبصق

ويشتم .. يسب ويلعن . يقذفني بكل ما
تصل إليه يده من أدوات البيت التي
أخذت تصطدم بالجدران بصوت
مسموع ، فينكسر منها ما ينكسر ، وينجو
من الكسر ما ينجو . وهو يجري وأنا
أجري أمامه ، وأمي تبدو مشدوهة ..
عيون زائغة ، وفم مفتوح ، ووجه اكتسى
بصفرة الموت .. صاحت :
- كفى .. كفى .. إنه ولدي .

هدر يعقوب : يا خائنة .. يا
خائنة .. ولدك .. وأنا .. لماذا لم تنجي
لي أي ولد .
وقذفها بشيء كان في يده فأخطأها ..

واندفع خلفي ثورا هائجا يلاحق لونا
أحمر .. اندفع داخل المطبخ .. أمسك
سكيناً بيده .. جرى خلفي .. قصرت
المسافة بيننا .. كاد يمسكني .. أمسكت
به أُمي .. التفت نحوها .. رفع يده
بالسكين ليطعنها .. عدت إليه ..
أمسكت بعقبه بكل قوتي .. جذبته
فانكفاً على وجهه .. انغرزت السكين في
جوفه .. دنس .. اندفع هواء الكرة دما
أصفر ، وتمتم يا خائنة ، وهتفت أُمي :
إنه ولدي .. واكتشفت فجأة أن يعقوب
إنما جاء من العقب .

١٩٨٧ / ١٢ / ٦





بقلم : عزت الغزاوي

البارزة، فنقلت خطواتي اتبعها، وألقيت
نظرة سريعة وراء السور الذي كان.
ذهلت حيث رأيت أن معظم حجارة
السور قد أصبحت في عرض الشارع
الضيق. لو كانت (أم خلف)
موجودة... ماذا كانت ستفعل لو رأت
حجارة سورها في الشارع؟

— ما حد قال لك؟

— آه... .

— عبدالرزاق.. . مش أخذوه قبل أربعين

يوم؟

— عبدالرزاق؟

— قال عبدالرزاق.. . لو الولد عمل شيء

لم أكن لأدري أن «عبدالرزاق» قد
أودع السجن لولا أنني التقيت أمه صدفة
أثناء زيارتي القصيرة للقرية (والله يا ابني
نسيئوننا هناك وبطلتوا تسألوا عنا) هل
صحيح ما تقوله أم عبدالرزاق، أم أن
العتب جاء عن طريق الممازحة؟ لم أتردد
قبل أن أنفي التهمة بطريقة مؤدبة، إلا
أنني خجلت وأنا أبالغ في الدفاع عن
نفسي بينما كانت تعابير وجهها تدل على
انتظار هاديء لأخبار تريد أن تنقلها.
سكت دون أن أكمل جملي الأخيرة كأنني
استحثها الإسراع. تنحت جانباً حيث لا
تزال بقايا بيت (أم خلف) بحجارته

ما بزعل . . بس والله أخذوه من البيت .

حاولت أن أضمن نظراتي القليل من الاستغراب، واحترت كيف أشرح لها الأمر. ما علاقة هذه المرأة الغانية بعبارات الجدل عن الوطن والحرية؟

— أنت عارف، قالوا عنه علق صورة (الختيار) على النخلة . . نخلة الجامع، ومن يومها والناس في الحارة مالهش حكي غير صورة (الختيار) على النخلة . . «أيوه يا عمي، عبدالرزاق طلع مثل السعدان وعلق الصورة» .

عبدالرزاق . . . تأتي الصورة على استعجال، قوية كرائحة زيت الزيتون في الموسم . . . تركنا في الصف الرابع الابتدائي، لكننا لم نتركه، أو على الأقل لم أتركه، في الحوش — حيث بيتهم القديم — كنت أرمي (كيس الشرايط) — حقيتي — وأقضي معه بقية اليوم. تارة نبنى بيوتا من الحجارة القديمة، وطورا نفتش عن أكياس الأسمت للفارغة كي نصنع منها ظروفا نبيعها لصالح الأطرش — صاحب الدكان الوحيد في القرية. وطالما وبخني الناس على صحتي لعببدالرزاق . . «الولد حرامي» . . سرق دكان صالح أكثر من

مرة . . «الولد أهبل . . مالك وماله» وكأنهم أهانوا في قدرتي على اختيار أصدقائي فتشبت به رغم نظرات أبي المليئة بالازدراء ورغم حرمانني من المصروف اليومي .

— الناس كلهم خطوا محامين وعبدالرزاق ماله حدا .

لا تزالين كما أنت يا أم عبدالرزاق . دائما ترينه طفلا قاصرا تلاحقينه من مكان لآخر حتى يأويكما البيت معا . . تنامين على العتبة وينام هو في صدر المسطبة . . لكني لا ألومك فقد كان الوحيد الذي خرجت به من الدنيا، وحتى هذا الوحيد شوهوه بلقب (الأهبل) .

كم أحسست بالعجز والحيرة حين تركتها ومشيت بعد استئذان وبعد أن أكدت لها أنني سأتابع قضيته مع محام صديق. رأيتها تدخل باب الزقاق تقدم رجلا وتؤخر أخرى فانتشت في عوالم قديمة . كم كانت تصدفنا في تلك البقعة بالذات متسللين بظروف الورق نريد بيعها . تهز رأسها وتطلب أن نشترى لها شيئا ولكننا لم نكن لنفعل . كانت قروشنا القليلة تذهب على الفور لـ (أبو عبود)

بائع الفلافل بعد أن نكون قد اطمأننا على ذخيرة كافية من السجائر، لكنها لم تكن لتعتب، كأنها تنسى دائما طلبها، وكنا نعرف ذلك.

أبعدتني هممة (الحاج صادق) عن باب الزقاق رغم تعلق الذاكرة. كان يجلس على عتبة (صالح الأطرش) مع الشيخ عارف وقد غرق كلاهما بفراغ الشارع الذي غيرته الانتفاضة. دكان (صالح الأطرش) مغلق وراء صمت وبابه الأزرق يزخر بالشعارات، أما الأرملة الحمراء التي حصل عليها (صالح الأطرش) من شركة الكولا فقد تشوشت كثيرا بفعل الكتابة ومحوها وإعادة الكتابة من جديد. آمنت أنه يصعب قتل عادة قديمة أصبحت جزءا من الحياة. كم مضى عليهما وهما يجلسان عصرا في ذات المكان؟ لم أكن لأحدد بالضبط إلا أنني وخلال سنوات حياتي - التي شارفت على الأربعين - كنت لا أرى المكان إلا من خلالهما، وكم أفسدا علينا متعة اللعب في الشارع، فكأنهما دفعا بنا إلى قلب الزقاق نلعب كما يحولنا ما دمنا لا نفسد هدوء الشارع وحركة السابلة. إلا أن الشيخ صادق بالذات كان يجب (عبدالرزاق) ويغضب حينها يسمع كلمة

(الأهبل). ولم يكن جبل السود بينهما عارضا. بدأت أفهم لماذا كان الشيخ صادق يمسخ على رأسه ويقول له (ابن الغالي) بينما يروح (الشيخ عارف) يعن النظر وشفتيه تطفح بابتسامة. مناسبة واحدة فقط لا زلت أذكرها قطعت علاقة الحاج بعبدالرزاق فترة من الزمن خلقتها دهرا لأنها مرت ثقيلة. خرجت الحاجة صافية من باب الزقاق ذات يوم وهي تصيح: «يا ناس.. ابن فضة السلطان ذبح ذكر الأرناب وطعماه للزعران». انتصب الحاج صادق يومها وضرب الأرض بالباكوه وصاح في وجهها (إخرسي يا حرمة).. الله لا يرده ذكر الأرناب.. كانت حسرة كبيرة بالنسبة لعبدالرزاق أن يفقد محبة رجل كبير كالحاج صادق، الذي أخذ يشيح بوجهه كلما مر عبدالرزاق، ولا أزال أذكر جيدا كيف بكى بحرقه يوم اعترفت خضرة الشايب بأنها هي التي سرقت ذكر الأرناب وعرضت ثمنه مضاعفا على الحاجة صفية طالبة منها الصفح. وكانت حكاية خضرة الشايب غير مفهومة بالنسبة لي، إلا أنني أدرك اليوم كم كان لحكايتها علاقة أكيدة بثقافة القرية، فبعد أن مات ابنها الوحيد - والذي جاء

يديه وهو بهم بالوقوف، إلا أنني انحنيت
وطلبت منه أن يبقى جالسا مكانه .
— الله يمسيكم بالخير .
— مساء الخير يا ابني . . الله يرضى
عليك .

جلست بينها كطفل يقفز مرعوبا من
كابوس ليل طال، هل كان ذلك شعورا
بالأم؟ لا أدري لماذا سيطرت على تلك
الفكرة، إلا أنني نفضت عن نفسي آثار
الانفعال الذي يلزمني منذ مدة طويلة،
كنت كمن يشعر أن مجرد الوجود بحد
ذاته إداة كافية لأي شاب، فكيف بي
وقد وقفت وجهها لوجه أمام بيت (أم
خلف) و (زقاق الطوابين) وأبدية لا
تنتهي من القدم؟ أعدت بناء سور (أم
خلف) في تخيلتي، ونظرت بحسرة إلى
الحجارة المكومة في وسط الشارع .
أدركت أن الرجلين قد أحسا بما أفكر به
في تلك اللحظة، فقد أشار (الحاج
صادق) إشارة مبهمه إلى كوم الحجارة
وعقب (الشيخ عارف): (الله يرحمها أم
خلف . . لو كانت موجودة ما انهدم
السور) . وأنتم ماذا تفعلون؟ لم أحس
بالغضب قدر إحساسي بالإهانة لأن قرية
كاملة لم تستطع بناء سور أم خلف . إلا
أنني تناسيت إحساسي وحاولت أن

بعد سبع بنات — رأت أن تكفر عن
ذنوبها عل الله يرزقها بولد (يعيد لها
عقلها) . وهكذا أصبحت خضرة
الشايب امرأة متدينة تكثر من زيارة نساء
القرية الفقيرات وتبدل الكلمة السيئة
بأخرى حسنة، وتجلت توبتها بالإعتراف
أن عبدالرزاق بريء من دم ذكر الأرناب
وأشهدت الله على صحة قولها . يومها
وقفت أقرب عن كذب قصة براءة
لصديق أراه صافيا صفاء وجه الحاج
صادق . (أنت بعدك زعلان يا ابن
الغالي . . . الله يرحمه أبوك كان عز
الرجال) ومد يديه على اتساعهما ينتظر
تدقق عبدالرزاق الذي قفز بسرعة إلى
حضنه وراح ييكي .

كان بإمكانني أن انسحب بسرعة
واختفي عن نظر الرجلين دون أن ينتهيا
لوجودي، إلا أنني كنت بشوق للحاج
صادق، أو ربما كنت بحاجة ماسة
لدعواته اللطيفة، تعمدت أن أحدث
صوتا واضحا لوقع أقدامي على الأرض
كي يخرجنا من ذهولهما، وكدت أصاب
بخيبة أمل حين تخيلت نظرة فارغة تزوم
حول عيونهما، هل مر عام أو أكثر على
آخر مرة جلست معهما قليلا في ذات
المكان؟ أخيرا ابتسم الحاج صادق ورفع

أحافظ على هذا الشعور بالأمن الذي أغراني لدرجة جعلتني اتخلي عن فكرة العودة إلى المدينة ذلك اليوم رغم مشاغلي الكثيرة . . حشرج الحاج صادق كأنما يمسح حلقه من غُصّة، ومال قليلا ناحيتي .

— سمعت عن عبدالرزاق؟

— كنت مع أمه قبل قليل، حدثني .

— وما رأيك؟

— لا أدري الأمر غريبا، هو شاب على أي حال .

— لا أقصد أنه لن يستطيع التحمل، لكنه سيجد نفسه في واد جديد .

عبدالرزاق بدون حرية لا يستطيع أن يعيش .

— لا أظن أنه أساء التقدير، لا بد أنه كان يعلم ما ينتظره عندما اختار الطريق .

— نعم . . أنا وأنت نعرف ذلك .

— لكن قل لي يا حاج . . ماذا عمل عبد الرزاق؟

— ابتسم الحاج صادق ابتسامته الصافية وكاد يستغرق في الضحك .

— تعرف . . كان القرية ليس فيها إلا عبد الرزاق يرفع العلم، ويطلب من أصحاب الدكاكين اغلاق محالهم،

وأخيرا تسلق النخلة وعلق صورة (الختيار) على مرأى من جميع الناس . . خرجنا يومها من صلاة العصر على صوت أطفال الحارة وهم يهتفون ويفسحون الطريق لعبدالرزاق الذي أحاطته العيون بإعجاب لم أكن أحلم به ذات يوم . لن تصدق مدى دهشتي حين حمله بعض الفتية على أكتافهم وبدأ بهم خطابا، آمنت ساعتها أن المدرسة ليست كل شيء في حياة الإنسان . .

لا بد وأن الحاج صادق لاحظ وقع كلماته على معالم وجهي . شعرت بالفخر يغمرني وأنا أسمع شهادة رجل تحترمه كل القرية بصديق طفولتي الذي عانيت كثيرا من أجل الحفاظ على صداقته . كان ذلك رأيي بعبدالرزاق منذ البداية، ولكن أي انجاز هذا الذي يصل إليه بعد أن كان في نظر أهل القرية على هامش الحياة؟ وكدت أستغرق بتساؤلاتي لولا أن الحاج صادق ضرب بكفه على ظهري وسأل فجأة :

— لكن قل لي من أين جاء عبدالرزاق بهذه القوة؟

— من الناس . .

— لا . . الناس في القرية كانوا يعتقدون أنه ضعيف .

— لكنه كان يعتقد أن الناس أقياء ..
فأخذ من قوتهم ليعطيها لهم مرة أخرى .
— لا أفهم .. لا تحكي لي كلام
مدارس .

— آسف يا حاج ، أقصد أن عبدالرزاق
يحب الناس إلى درجة جعلته يترجم محبته
إلى فعل .

— صدقت .. مع أن الناس لا يفهمون
الأمر كما تفهمه أنت .

— وما دورك أنت ؟

— أنا لست معلما ..

— وعبدالرزاق ليس معلما أيضا .. إنه
فقط يؤمن بالناس ويعتقد أنهم يستحقون
الحرية .

— كلنا نعتقد ذلك .

— الفرق هو كيف نقنعهم على العمل
من أجلها .

خمنت أن الشيخ عارف لم يكن يتابع
حديثنا رغم ما يبدو عليه من اصغاء
شديد ، وما لبثت أن تذكرت ثقل سمعه
فمسحت على كتفه متوددا فابتسم
ابتسامة صافية جعلتني أنفض عن نفسي
آثار التوتر الذي داهمني لدى سماع قصة
عبدالرزاق . بدأت أعود برضى شديد
إلى حالة الشعور بالأمن التي دغدغت
إحساسي . وأستطعت أن أتخيل مشوارا

قصيرا في المساء قد يوصلني إلى مشارف
(وادي الخروب) . ألم تكن رفاهية شاعر
وسط غضب . قتل في الناس روتين
حياتهم ورفعهم إلى مستوى همهم
الطويل ؟ ليتك تقول لي يا حاج صادق
حقيقة ما توصلت إليه .. قل لي فقط
أين نحن ، وأنا أقول لك أين
عبدالرزاق . لم يكن ثمة حوار يطل من
خلال نظراته المبهمة وكأنه كان يخاف
أستلتي ، أو كأن عبدالرزاق جعله يقف
وقفة طويلة مع نفسه يراجعها . كنت
أتوقع أن يعيد على مسامعي قصة أولاده
الثلاثة الذين لم يخرجوا من حصار بيروت
وكم فرحت لأنه لم يتخلف هناك ليحكي
عن الماضي ، وربما كان ذلك سر حماسه
الشديد لعبدالرزاق .

— تعرف ..

فوجئت أنه بدا الحديث بعد أن كنت
نسيت فأقتربت منه .

— نعم .. ماذا يا حاج .

— كان عبدالرزاق يلد دون زواج ، هل
تدري ماذا أعني ؟

— نعم .. وأستطيع أن أرى ذلك كما
أراك .

— لكن قل لي .. هل ستكون بيروت
أخرى ؟

— كنت سأسألك هذا السؤال . ماذا
تحس أنت بقلبك؟
— هل تصدق قلبي؟
— نعم .
— أعتقد أن الأمر يختلف . نحن مع
بعضنا أكثر مما كنا في بيروت .
— قل لي كيف تحكم؟
— قصة طويلة .

لكنني عندما وصلت بيروت بعد
الحصار أسأل عن أولادي تهت كثيرا .
أخذوني إلى أحد المخيمات وقابلت رجلا
قالوا انه مسؤول كبير عرفته بنفسه وسألته
أن كان يعرف مصير أولادي الثلاثة ،
فلم يتردد قبل أن يجيب (قتلهم الختیار
إني حاملينه على أكتافهم) ، وسألته لماذا
لا يحمله معنا إن كان فلسطينيا ، فصاح
في وجهي (وهل نسيت أولادك؟) ، قلت

له (طبعلا ، ولكن أعطني بعض
التفاصيل) ، سمعته على مدى ساعة من
الزمن وهو يحكي عن ثورة جديدة تولد
بعد الحصار . فهمت من كلامه أنها تولد
غربية لأنها مشوهة بالدم . هربت بعدها
من بيروت ولم أتذكر الموقف إلا ذلك
اليوم بعد صلاة العصر حين أخذوا
عبدالرزاق . صدقني لم أتذكر أولادي
حسرة عليهم ، ولكنني أحبيت لو أنهم
كانوا مع عبدالرزاق .

حين دق الشيخ عارف الأرض
بعضاه ، لم يتأخر الحاج صادق الذي
نهض وتوارى في الزقاق . وجدت نفسي
أمشي بهدوء صوب (وادي الخروب)
وللمساء طعم غريب لم يكن ذات يوم .
في الأفق كانت الشمس حمرة كبيرة تراوح
مكانها تخاف السقوط .

قصة قصيرة



بمقام : سامي الكيلاني

والديون والبطالة التي يغرق فيها زوجها أبو خالد، إبراهيم عباس فيجعله ذلك عكر المزاج يبحث عن أي مشكلة ليفجرها عند دخوله البيت ليغادره في الحال، حتى لا يسمع الشكوى أو يراها في عيون الأطفال ولو لم يقلها أحد منهم مراعاة لحال أبيهم وتنفيذا لنصائح أمهم. غلى الحقد في صدرها وتكثف لعنة على الصدفة التي اعترضت طريقها هذا اليوم لتودي بفرحها، تماماً كاللغم الذي اعترض طريق فاطمة الصالح

حين يتذكر المرء إخوانه الذين أخذوا منه على حين غرة، يستعيد حزناً قوياً وكأن الميت ما زال مسجى في وسط البيت، على الرغم من أن زحمة الحياة تكون قد عاجلت الحزن بتفاصيلها وتنوعات همومها وأفراحها المتلاحقة. وما الذي يعيد ذلك إلى ذاكرته غير كلمة أو موقف يقفز أمامك فجأة وسط الانسياب اليومي الرتيب للحياة..

فكرت نعيمة الحسن بذلك وغلى الحقد في صدرها على الجوع والفقر

وهي تلقط الزعتر فأودى برجلها ليصبح اسمها فاطمة العرجا. بصقت على الأرض وشتتت تلك الوجوه اللثيمة التي خطفتها من لحظة نسيان همومها.

قبل أن ترى هذه الوجوه المكتنزة المليئة بالنمش كان الحال حالا آخر والآن لا حال لها سوى أنها أصبحت كتلة من الحنق والغضب والحزن، كانت ناسية همومها، سعيدة في لحظتها، بالأمس مساء عاد الرجل رائق المزاج على غير عادة، لم تسأله من أين دبر الدنانير الخمس، ولم تفتح له محضرا حول مساويء الديون، ولم تسأله حين دخلت أنفها تلك الرائحة، إن كان قد شرب. قررت أن تساعدته بكل ما تملك للمحافظة على هذا المزاج الراق، رغم معرفتها أن تحت السطح الهاديء غليانا وتفجرا لا يمكن أن يسمح له بالهدوء إلا لوقت قصير محدود. قضيا ليلتهما وكأنهم بعيد عنهم وعن بيتهم بعد الساء عن الأرض.

عبرت عن غيظها المتصاعد بدفع طشت الغسيل برجلها فانقلب وسالت منه المياه بخط متعرج نحو المصرف في آخر الساحة. عدلت قرمية الخشب التي تجلس عليها لتتيح لظهرها الوصول إلى

الحائط، أسندت ظهرها وألقت برأسها إلى الحائط وأغمضت عينيها.

استيقظت نشيطة مبهجة. تقدمت من المرأة وتفحصت نفسها. عقدت المنديل على رأسها عقدة ذكرتها بأيام الشباب والفرح، أيام خطبتها، حين كان أبو خالد - وهكذا كانت تسميه قبل أن يتزوجا وقبل أن يأتي خالد إلى هذا العالم - يبرر لها قلة الزيارة بكثرة العمل. وكانت قنوعة بالزيارات القليلة لأن كل زيارة تضمن لها هدية معتبرة تتباهى بها أمام بنات الحارة، فتغرر بنفسها وجمالها وحظها، وتتأنق في ملابس الهدايا وتعدد المنديل بهذه الطريقة وشيء في داخلها يدغدغ غرورها ويحسدها على هذا الجمال، ثم تعاود النظر إلى نفسها في المرأة حتى تفاجئها أمها بكلمة سليطة تذكرها بأن هذا الذي تفعله اسمه «رعونة» ثم تلتف الجومعها بنصائح حول ضرورة «الثقل» وإن الفرح لا يدوم والشباب لا يدوم وإنما ستصبح عما قريب زوجة وأما وستغرق في العمل البيتي وهموم الحياة. نظرت إلى نفسها مرة أخرى وتمنت لو تبقى هذا اليوم دون عمل وأن تدوم هذه الحالة لساعات أخرى. خرجت إلى الساحة الصغيرة

وجلست تستقبل شمس الصباح المتسللة من خلف الجبل . الجميع ينام عداها ، الأولاد يهدم اللعب في بداية العطلة الصيفية فينامون دون أن يتقلبوا في فراشهم ، أبو خالد يغط في نوم عميق ، أنعشتها شمس الصباح ، أحست بنفسها نبتة يانعة بللها الندى وأيقظتها الأشعة الدافئة .

أيقظت الجميع بعد أن شعرت أن نومها قد زاد عن حده . كان الفطور جاهزا ، إبريق الشاي الكبير وطبق القش يحمل أرغفة الخبز والزيت والزعتر ، لم تلق بالا للزيت العكر الذي يدل على أن تنكة الزيت تقارب على الانتهاء . تناولوا ما وجدوه أمامهم بهدوء ، لم يسكب أحد من الأطفال نقطة شاي ولم يزعجوها في شيء ، وأبو خالد أكل صامتا ولم يتعرض هذا اليوم الذي سيضاف إلى أيام البطالة . تفحصت وجهه دون أن تجعله يلحظ ذلك فوجدته هادئا ورائعا ، ثم التقت نظراتهما فجأة . فضحكا . انتهى الفطور وانطلقوا ، أبو خالد إلى المقهى ، والأولاد إلى اللعب ، رجت الأخوين الكبيرين أن يأخذا أخاهما ابن الخامسة معها فوافقا دون تذمر .

حتى الأمل بشيء جديد ، لم يكن

أمامها فرصة لانتظاره في هذا اليوم ، إلا أنها ظلت تشعر بالسعادة . فمنذ أكثر من شهر توقف أبو خالد عن القيام بمشوار البحث عن العمل الذي بدأ يقوم به بعد فصله من العمل . قال له المقاول يومها أن العمل لم يعد كالسابق وأن عليه أن يستغني عن بعض عماله ، احتج أبو خالد ، لماذا سيبدأ به وهو الذي يعمل عنده منذ أكثر من خمسة عشر عاما؟ لم يرد المقاول بشيء . ودخل أبو خالد حياة البطالة . جرب حظه في سوق العمال في مدينة الخضير ، كان يحمل جزءا من عدة الطوبار ليدل أصحاب العمل على مهنته دون أن يعرض نفسه بلغة مستجدية . أصبحت المشاوير عبئا اقتصاديا عليه فتوقف عن القيام بها . كان يركب الباص صباحا ويشتري تذكرة للذهاب والإياب ، يصل الساحة التي يصطف فيها العمال انتظارا لأصحاب العمل ، يتناقص عدد المنتظرين وهو على الرصيف إلى جانب قطع عدته ولا أحد يتقدم منه ، وحين يتصف النهار يغادر المكان ويذهب للتسكع في المنتزه البلدي إلى حين عودة الباص . يعود كل يوم والفشل والخيبة يملآن وجهه .

عادت للجلوس في شمس الصباح التي أصبحت تغطي الساحة، تفقدت بفضل نبتات النعناع في الحوض الضيق الذي يعلو السور القصير. أحضرت إبريق ماء سكبه على الحوض. فرحت لخفضة النباتات وقطرات المياه التي تعلقت بالأوراق الخضراء، وتنفست الرائحة التي انبعثت منها بملء رئتيها.

قررت أن تبدأ العمل قبل أن تغادرها حالة الفرح. أحضرت الحطب من الحزم الموضوعة خلف السور، وملأت الموقدة الفخارية بقصف صغيرة وصبت كمية من الكاز وأشعلت النار. ملأت السخان التوتياء بالماء ووضعت فوق النار ثم أضافت جذعا صغيرا بين القصف المشتعلة. دخلت وبدأت بتجميع الغسيل المتراكم وعادت به.

قطع عليها انسجامها بالعمل والغناء المنبعث من الراديو والموضوع إلى جانبها صوت طرقات على الباب الخارجي. نهضت واتجهت لفتح الباب، فتحته فتحة ضيقة تمكنها من رؤية الطارق، أعادت إغلاق الباب عندما رأت السيارة

الواقفة بمحاذاته، عدلت ملابسها، وجردت بقايا مياه الغسيل عن يديها وأنزلت كمي فستانها وأسكتت الراديو وعادت لفتح الباب وقلبها يدق من الدهشة والخوف لمراى السيارة ذات اللوحة الصفراء. خشيت أن يكون السائق الذي لم ينزل من السيارة رجل مخبرات، لكنها استعاضت بعض الهدوء حين رأت في السيارة امرأة وطفلا، ضمنت أنهما لا بد زوجة الرجل وابنه. أنقذها من حيرتها ابن الحاج خليل الذي وصل إلى جانب السيارة حين قال بأن هذا اليهودي سألته عن بيت إبراهيم العباسي فدلته على البيت، عندما أنهى الولد حديثه تحدث سائق السيارة: «شلوم، مش هذا بيت إبراهيم عباس».

أجابت متلعثمة: «أيوه تفضلوا، أنت الكابلان(*)». اللي كان يشتغل عنده إبراهيم؟».

هز رأسه موافقا ونزل من السيارة ورطن مع زوجته وابنه فنزلا. فتحت الباب فتحة كاملة، ثم فتحت غرفة الضيوف وارتبكت وهي ترتب الكنبات

(*) كلمة عبرية تعنى المكاول.

الحديدية، ضحكت في وجوههم وألقت بعض الكلمات المجاملة وهي تشك في أن أحدا منهم قد فهمها، واستأذنت وخرجت. وقفت في الباب تبحث عن أولادها، كانوا قادمين نحو البيت، استعجلتهم فركضوا. ناولت الابن الأوسط ورقة خمسة شواقل وطلبت منه أن يذهب «مثل الريح» ويحضر زجاجة كولا كبيرة، وطلبت من الابن الأكبر أن يذهب ويبحث عن والده في المقهى ويخبره بأن المقاول الذي كان يعمل عنده قد حضر يسأل عنه، وأنه ينتظره في البيت، وأدخلت معها الصغير. امتلأت فرحا، وأقنعت نفسها بأن اليوم من أوله يوم خير. عادت إلى الغرفة واعتذرت للضيوف عن غيابها، وبدأت تجملها وتوجه كلامها إلى الزوجة خاصة. ولما لم يستجب واحد لمجاملتها، توجهت إلى الرجل تسأله:

«ما علمك أبو خالد تحكي عربي طول مدة الشغل؟»
«مين أبو خالد؟»

تفاجأت بإجابته «زوجي، إبراهيم العباسي» وأشارت إلى الصورة المعلقة على الحائط فوق سجادة عليها صورة الكعبة والمسجد الحرام.

«مش هذا اللي بيشتغل عندي، الي بشتغل عندي اسمه أبو حازم».

صفعها الاسم. فهمت تماما ما الذي يدور رغم قوة الصفعة، إنه يريد بيت إبراهيم عباس، ابن عم زوجها، أبو حازم، هو الآخر عامل طوبار، راودتها نفسها أن تقول له بأن زوجها يعمل في الطوبار أيضا وأن بإمكانه أن يشتغل معه، لكنها ردعت نفسها عن ذلك.. أبو حازم عاطل عن العمل أيضا ولديه

ومضوا. وبقيت هي مسمرة حيث كانت.

أقبل ابنها الأوسط يركض وهو يحمل زجاجة الكولا. وصلها وبدأ الاعتذار عن تأخره ويضع اللوم على صاحب الدكان، قالت وهي تحتضنه بحنان: «مش مهم، أدخل استنى أخوك واشربوا الكولا سوى. إنتوا أولى فيها».

عائلة وهذه رزقته، وربما يرفض المقاتل الفكرة ويعلم أبو حازم بذلك فلا ينوبها إلا سواد الوجه أمام أم حازم. أوضحت الأمر للمقاتل. نهض وسألها عن البيت الآخر، دعت بهنك رحو إلى البقاء حتى يشربوا القهوة فلم يقبل الدعوة. خرجت معهم إلى الباب الخارجي وأشارت إلى البيت الآخر في الشارع الموازي لشارعهم. ركبوا سيارتهم



البؤرة

بقلم : رياض بيدس

المحطة الأولى : التطويبات

تفحصني الرجلان بسرعة. ولا ريب أن ملاحني الشرقية الخالصة دلت على هويتي. اثنان أمامي وجها لوجه. وأربعة أقدام قبالة قدمي وطرف سيدة يلامس طرفي وعيون تتفحصني.

الخرج هو الذي يسيطر علي في هذه الحالات التي أكرهها ولا أتمناها لغيري وأمثالي. ولشد ما يخرجني أن أكون سببا في تكدير جلسة أو تعكير صفو شخص ما، لأي سبب كان: لكن انغماس هؤلاء الأشخاص الثلاثة في حوار انقطع دل على أهمية الحوار الذي كان يدور بينهم؛ على الأقل بالنسبة لهم. والنظرات

على أحد الكراسي الأربعة جلست. وعندما صار الباص يعج بالراكبين جلست بجانبني امرأة بدا من ملاحظتها أنها تجاوزت الأربعين بقليل. وعلى الكرسيين المقابلين جلس رجلان كبيران، بدا أنهما كانا يصطحبان المرأة، إذ ما أن احتلوا آخر المقاعد الخالية، في الباص حتى دار بينهما حديث كان قد قطعه مجيء الباص.

قالت المرأة وهي تصوب نظراتها إلى الرجل الجالس أمامي :

— ماهو الحل، إذن؟ أستظل مشتتلة هكذا؟

السريعة والمستريية التي تبادلوها أثارت نفوري وتموجت في داخلي بانتظام، كدقات قلبي .

وبعد أن أدركوا، بالرغم من جلوسي قريبهم، أن ما حل سوى متابعة الحديث قال الرجل الأول الذي كان يحرك «الكييا»، على رأسه: الوضع أصعب مما تتخيلين . . يصعب على دماغك الصغير حصر كل ما يجري . . ويجب أن نعمل على إحلال الهدوء، ولو بالقوة.

الرجل الثاني (متلعثما): كيف يا يوسي؟ بالله عليك أخبرني كيف؟ هل يجدر بنا أن ندفع بأولادنا إلى المناطق كلما خرط شخص هناك؟

يوسي: كلماتك البذيئة هذه تسيء إلى حقيقة ما يجري . والأبناء يقومون بمهمة عظيمة وإنسانية من الدرجة الأولى .

المرأة: صحيح ما يقوله يوسي (تدير وجهها ناحيتي) يجب أن يفهم أهل المناطق أنهم يخضعون لسلطتنا وليس لسلطة أحد آخر في الدنيا . ثم ماذا يريدون؟ أو ماذا ينقصهم . .

كدت أن أزجرها . قائلا: أما ما ينقصهم هو أن يخرس أمثالك . لكن

الرجل الثاني ابتدرها قائلا: ما تقولينه صحيح يا نيلي . . أوافقك على ذلك . لكننا لا نسيطر على الوضع كما يجب . هل يجب أن نقف مكتوفي الأيدي أن ندخل نار ذلك الجحيم لنطفئها حتى يحل السلام . . قاطعته نيلي بحدة: تعرف يا عاموس، تماما، أننا لا نقف مكتوفي الأيدي . . ابني يهاتفني كل ثلاثة أو أربعة أيام ويقول انهم يعملون جاهدين على إحلال الهدوء في المناطق . أمر صعب، لكنه ليس مستحيلا! ولكي أكون صادقا معك أقول لك، بصراحة، أن ابنك هو السبب في بلبلتك .

عاموس (بحدة): لا، يا نيلي . تعرفين موافقي تماما وهي واضحة كالماء . لا يجب أن تعيريني بابني الذي رفض الخدمة في المناطق . كل واحد منا يستطيع أن يعير الآخر بأشياء يعرفها عنه . لكن إيانا أن ندخل في هذه المعمة! ثم أنت أكثر من غيرك تعرفين ما عانيته بسبب مواقف ابني، لدرجة أنني طردته من البيت، ألا يكفي ذلك؟!

يوسي (مطأطئا رأسه): من منا لم يخطيء؟ أنت أو أنا؟ أه، أيتها العائلة، كيف يتفرق أبناؤك كما لو أنهم ليسوا أخوة.

عاموس : أنا مخطيء إذن؟

يوسي : لم أقصد بالعائلة عائلتك بالضبط . . . كل العائلات هنا ، وبالذات في هذا الوضع ، يجب أن تكون متواسكة كعائلة واحدة .
نبلي : صحيح . نحن كلنا عائلة واحدة .
ما عدا . . .

يوسي : الغوييم . . .

عاموس (مستدركا وجودي) : والحل؟ ما هو الحل؟ إذا ما سألتني يا يوسي : «هل ستمطر الليلة؟» أستطيع أن أخمن وأقول لك : «لا ، لن تمطر! وباستطاعتك أن تسهر على سطح بيتك ومراقبة النجوم أيضا» . لكن إذا ما سألتني : «متى ستهطل في المناطق؟» أقول لك : «انه لمن الأسهل لي التنبؤ بحالة الطقس من التنبؤ بحالة الوضع في المناطق؟»

يوسي (بحدة) : أنت رجل غريب الأطوار . وأمثلك الشاعرية غريبة كغرابة تفكيرك . ما علاقة الطقس بالموضوع؟ وهل تجرؤ على التشكيك أو الاعتراض على سلطة الله؟

عاموس : لم أقصد . . .

نبلي (مقاطعة) : أتصور أني فهمتك يا عاموس أكثر من يوسي . . المثل الذي

قلته قبل قليل سيء طبعاً . . وإن دل على شيء ، فإنما يدل على عمق تفكيرك .

عاموس (مستاء) : على الأقل ، لا أسمع لوحدة مثلك أن تشوه تفكير أمثالي وأقوالي كما تشاء . . منذ البداية وأنت تحاولين مغازلة يوسي على حسابي . ليكن غزلك مباشرا وبدون ضحايا أيتها . . .

يوسي (ساخرا) : لا وقت للغزل . الغزل السائد في هذا الوقت هو غزل حربي من طراز الحجر في مواجهة قوتنا العظيمة . . .

نبلي (متجاهلة عاموس) : إذن ، تعترف أنه يجب تشديد قبضتنا على أهل المناطق؟

يوسي (بخبث) : لنسمع أولا رأي صديقنا عاموس حول هذا الموضوع .

عاموس (متلجلجا) : الرأي رأيكما!

يوسي (ضاحكا) : ألم أقل لك دائما أن أولئك الذين لا رأي لهم هم الرابحون؟ ثلاثتهم يضحكون ، بحيث يلفتون نظر الركاب الآخرين : إذن تتفق على شيء مشترك؟

يوسي : المشترك ، الآن ، هو ما يحدث في المناطق .

عاموس (بمرارة) : غدا؟

يوسي (بلوئم) : ما سوف يكون غدا .

البلاد سالمة. . وأريد المناطق. . وأريد ما
تريدانه. إياكما أن تظنا أني تغيرت. لم
يتغير تفكيري، لكن ما يحدث كفيل
بتغيير دقات قلبي أيضا. .

نيلي: برافو، ها قد أصبحت شاعرا.
عاموس (غير آبه بتعليقات نيلي): ابني
وحيدي خرج عن سلطتي. طردته وما
رجع. كلنا لنا أبناء. نتحدث يا يوسي عن
العائلة؟! أية عائلة هذه التي بقيت لي؟!
زوجتي ماتت. وأختي ماتت. أخي
مات. ابني طردته. فما بقي لي؟!

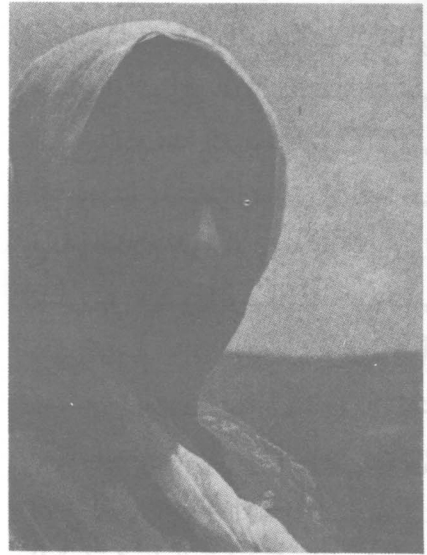
يوسي (برود): سيعقل ويرجع ويعتذر
ويذهب للمناطق.

عاموس: قال لي قبل أن يخرج من البيت
اني مجنون. . . وأني لو كنت أدرك حقيقة
الأمر كما يدركها هو لما طردته وقبلته في
البيت فخورا.

نيلي: ولد طائش. . . ابني يذهب إلى
الجنديّة، كما لو أنه يذهب مع صاحبتة
إلى حفلة راقصة.

يوسي: وابني يذهب للجيش، كمن
يذهب إلى رحلة سياحية. بارك الله
أبناءنا وأبقاهم لنا سنداً وعونا لتحقيق
السلم والمحافظة على أرض بلادنا
كاملة.

عاموس (عيناه ترغرغان بالدموع):



عاموس: الغد لا يهكم؟

يوسي: يهمني أكثر مما تتصور، لكنك
خائف. يجب أن تعترف بذلك. وأقول
لك بصراحة. أني كنت أتوقع منك
أكثر. .

عاموس (مكابرا): لست خائفا!

نيلي: كيف تثبت ذلك؟

عاموس: لا حاجة لي لأن أثبت ذلك لمن
هو غير جدير بذلك؛ وتحديدا لواحدة؛
مثلك. . .

يوسي: ما لنا والمواضيع الجانبية؟! ما
الذي يخيفك يا عاموس؟ هلا حكيت لنا
بما يعمل في داخلك؟ ما الذي جرى
لك؟

عاموس (حزينا): أريد أن تظل هذه

يتكلمون يفاجئون. كان يجب أن نكون
حذرين أكثر في أن لا نكشف غسيلنا
الوسخ أمام هذا العربوش...
أقاطعهما باستفزاز: يحق لي التدخل
مادام الكلام يدور الآن علانية عني.
تتأني نيلي ويقول يوسي: نحن نتحدث
على كيفنا. وإذا كنت لا ترغب في أن
تسمع ما يدور، فما عليك إلا أن تغير
مكانك أو تنزل من الباص ولتكن،
بعون الله، محطتك الأخيرة.
أقول: بشرط أن تكون محطتي ومحطتك
الأخيرة.

المحطة الثانية: خرايش الذاكرة المشوهة

أنظروا، بصري زائع، وأنا متعب،
هل تصدقون، أحقيقة ما تراه عيناى
الكليلتان، آه، أيها العربوش، أعذرني
يا ولدي، كيف أخاطبك، أي كنية
تناسبك أكثر من العربوش، طيلة حياتي
وأنا أناديك بالعربوش، هل تريدني الآن
أن أقول لك إنك عربي جيد، لا، لن
أقول عربي جيد، فيما بيننا اعتدنا القول
إن العربي الجيد هو العربي الميت، آه يا
ولدي، كنت تجلس بجانبى طيلة الوقت

وأنا؟ ماذا سأقول عن ابني الذي خذلني
وخذل أحلام أمه الميتة؟ هل ألعنه؟ هل
أكرهه؟ هل أنعته بابن العار؟ لماذا
وضعت يا بني جبيني في التراب؟ وأي
تراب سيحتضن جبين أبيك؟ لماذا تركت
الذين يسوون ولا يسوون يتلذذون
بتمليح جراحي وندوبي؟ تحت أية شمس
سأقف؟ وضوء أي قمر سيعاتق وجهي
الحزين؟ (يقف في الباص عابس الوجه
مقطب الحاجبين صارخا والركاب
ينظرون إليه باستغراب) اذهب في هذه
الأرض. لا تدع لي عينا تراك. ولا
تقرب منى مكانا. سأخلع من قلبي
حناني وأرمي به على النساء الثواكل،
لكي يغسلن بحناني وحنانهن قبور
أبنائهن. طوبى للأمهات الثواكل. طوبى
لأبنائهن الذين فقدوا في حرب ما كان
يجب أن تكون. طوبى للحرب. طوبى
للدمار. طوبى للسلام. طوبى للخراب.
طوبى لكم. طوبى لبلادنا والمناطق.
طوبى لكل شيء كان وسيكون.
طوبى... طوبى... (يندفع شاقا
صفوف الناس ليقع بينهم باكيا).
يوسي ونيلي (دون أن يطرف لهما جفن):
مسكين. خرف عاموس. (ينظران
صوي خلسة) صامتون كعادتهم. عندما

ولم أشعر بك، وها أنت تكون أول من
يسندني حين سقطت، كيف أشكرك،
آية كلمات أقولها لك، ماذا أفعل لك،
بحق السماء أي جحيم نقيم فيه، آية
كارثة أراها قادمة نحونا، أنقذني أيها
العربوش، أحمليني عن الأرض، ارفعي
عن حديد الباص الذي ترك جروحاً
ورضوخاً في بدني المتعب، هات يدك،
لا، لا أريدك أن تساعدني أيها
العربوش، البارحة بالضبط كنت ألعن
كل العرايش وأقول إنهم السبب في كل
ما يحصل لنا، أستم أنتم السبب، لو لم
تكونوا، لو رحلت، لو تركتم البلاد، لو
تعاطفتم معنا، لو أرغمناكم كلكم على
الرحيل، ألم يكن ذلك أفضل وأجدي،
حتماً كانت امرأتى ستسعد بأرض بلادنا
الكاملة التي حلمت بها دائماً، أنتم سبب
غصة زوجتي، أنتم سبب خراب بيتي،
ابني يقبع الآن في السجن بسببكم، لم
يذهب للمناطق بسببكم، لعنتي
بسببكم، اختلفت معه بسببكم، هل
تزرعون الكراهية والبغضاء أينما حللت،
هل تتركون الحقول الخضراء قفراء بعد
اقترابكم منها، أنتم ملعونون وعلينا أن
نحصد لعنتكم، أنتم منبوذون وعلينا أن
نتجرع نبذكم. آه أيها العربوش، ماذا

أقول لك، أقول لك أريدك، أعترف
أني لا أريدك، أكرهك، لا أدري في
هذه اللحظة، أنت، أنت أول من رفعتني
عن أرض الباص الصلبة، أنت أول من
استندت إلى كتفه بعد أن سقطت،
كبرت في العمر، ابني تركني، دق أبواب
السجن بيديه، قال إنه لن يخدم في
جيش لا يقتنع بعدالة مهامه، وقال
كلاماً كثيراً، أهل الحارة شمتوا بي، قالوا
لي أنت من كنت تكره العربوش، ابنك
يمشي معهم، يسهر معهم، يجالسهم،
كلنا نتحفظ منهم، وابنك يعاشرهم،
سوء التربية أدت به إلى ذلك، الكلام
الفارغ الذي كان يسمعه من صديقه من
تل أبيب، السياسة الفاسدة أفسدته،
وكلام المجانين أيضاً، لو لم يسمع كل
ذلك لكان الآن كابن يوسي ونيلي وهانا
وأبراهام ويعقوب وكل أبناء الحارة وكل
أبناء الأشخاص الذين أعرفهم، إنهم
يخدمون في الجيش ويقومون بواجباتهم
تجاه الوطن وأنفسهم، لا مكان للجيني
الناصع حتى على حديد الباص، لا
مكان لعيني، أين سأذهب بوجع
روحي؛ كل شيء يوجعني، كنت أغذيه
بالأمانى الحلوة التي طمحت أن يتغذى
بها ويتصرف حسبها ذات يوم، لكنه

تغذى بسموم، السموم ولدت السموم،
إنه يقبع في السجن، ربما كان الآن يفكر
في، لكني لا أظن ذلك، ربما يفكر في
العربوشيم أمثالك، آه أيها العربوش،
لا شك أنك شامت بي، وقد تسعد لألمي
وتستلذ لأوجاعي وتذوق طعم الحرية
الجامحة، لقيود الهمز، التي أرسن بها،
آه، أيها اللثيم، كم عانيت بسببك، لو
كانت في يدي قوة لخنقتك، أنت
السبب، وا ولداه، ولدي، يا حشاشة
روحي، أنت ولدي، لست ولدي،
نظري ضعيف وقلبي ينادي ولدي آه يا
ولدي، يا حبيبي، لو كنت برفقتي
لأمتعت يداك عذابات جسدي، مرر
أصابعك أمام عيني، دموعي لا تساعدني
على الرؤية، يداك ليستا يدي ولدي،
كل شيء فيك يقول إنك لست ولدي،
اللمسة، الأصابع، التنفس، الطول،
ملامح الوجه التي أكاد ألمحها، حتى
خبطة قدميك على أرضية الباص،
جنبك الذي يلامس جنبي على كل
منعطف، كل ذلك يقول لست ابني،
أنت ابن إنسان آخر، عربوش ابن
عربوش وابن عربوشة أيضا، سحنة
عربوش، أشعر من بعيد بكم كما لو
كنتم على بعد أمتار، أعرفكم، كنت

أعرفكم بسرعة أكثر، حتى لو تشابهت
الملاح، مجرد أن تقف بيننا، تتحرك،
عيناك تدلان عليك حالا، فيهما شيء
مختلف، رعب دفين، سؤالات، فيهما
هواجس، كنت أشعر بذلك في الحال،
الآن تستطيع أيها العربوش أن ترى عيني
أحسن، لماذا، لماذا أوشك بصري أن
يذهب أيضا، قد تفيض روحي ذات يوم
قريب، لكن هل تظل عينوك تدل
عليكم أيها العربوش الصغير؟ ماذا تقول
في ذلك؟ قل كلمة بشأن ذلك لتسكن
هواجسي المستنفرة، لتفه بحروف
الجواب، لثيم، أعرفك، يوسي أما زلت
أمامي، آه أراك، وأنت يا نبلي، ما زلت
موجودين، لا تتركوني مع العربوش،
نحن نترك الباص في نفس المحطة،
نسكن في العمارة نفسها، إياكم أن
تتركوني معه، لا تقولوا إنه هو من
رفعتي، لتعرفوا أن من رفعتي قد
يسقطني، إحدورا ذلك وكونوا على حذر
من كل ما يحيط بكم، أي أشعر أن كل
ما يحيط بي يخدعني، ويوشك أن
يسقطني، أنتم أصدقائي المقربون،
أبعدوا العربوش عني، لا تجعلوه يتقدم
مني، عرفت أنه كان يمسخ الدم عن
وجهي بمنديله، لا تجعلوه يقترب مني،



إياكم، هذه وصيتي إليكم، دم على يدي، أحس بحرارته على يدي، جروحي غزيرة تقطر دما وألما، لا، لا يا نبلي، إياك أن تشدي على جروحي كثيرا، ابتعد أيها العربوش، إياك أن تلمسني، لا ترفعي إذا وقعت ثانية، هه، هه، ترون، العربوش يخافني، يحسب لي حسابا، لولم تكن أيها العربوش موجودا لبنيت لابني أحلى بيت وأسكنته إياه وزوجته أحلى عروس وأنجب لي حفيدا؛ كنت سأعلم حفيدي الألمانية واليديش لغة جده الأصلية، وسأذهب كل ليلة لزيارته قبل أن ينام، وأحكي له خرافات ألمانية، شكرا يا يوسي على المنديل، سأضعه على خدي الذي ينزف وأضغط بخف نزيفي، ارفقي بي قليلا يا نبلي ولا تزيدني على قلبي بكلامك الذي يسم البدن أكثر مما هو مسموم، وأنت يا يوسي لتكف عن ألاعيبك الشيطانية بتعذيبي، لم أخطيء حين أطلقت عليك لقب الشيطان الصغير، وأنت أيها العربوش ارحل، أمامك أكثر من عشرين دولة تستطيع العيش هائثا في ظلها، إرض بالأمر الواقع واتركنا، هل تريد أن تخرب بيتي أكثر مما خربته، هل ستعملون لنا من

المناطق جحيما، لتعرف أيها العربوش أنك لست أقل خطرا من أهل المناطق، بل أنت أخطر، أنتم خطرون أيها العرايش أكثر مما كنت أتصور، تستطيعون التحمل، هذه صفة إيجابية، أعترف بتحليكم بها، وقدرتكم على الصبر تفقدني أعصابي، ما الذي تريدونه منا، قل لي أنت، أريدك أن تحكي لي تاريخ حياتك الشخصي، كيف سمحت لنفسك أن ترفعي، لا شك أنك تبيت لي أمرا خبيثا، أعرفكم، أنتم والجحيم شيء واحد، لا فرق بينكما، جحيم فوق وواحد تحت، إحك، قل، يوسي ونبلي سيسمعان أيضا، سيشاركان، يجب أن

جنت فكل ذلك بسبيك، جلوسك
بجنبي يجني، بحلقتك في ثيرني،
نظرتك لي تخرجني عن طوري، لمسك لي
يخنقي، بالله عليك، احتراماً لكل من
تقدرهم وتعزهم، لأجلي، لأجل
الأطفال الصغار، لأجل عذابي، لأجل
الشامتين بي وبتربتي، لابني القابع في
السجن لا أعرف مكاناً له، لأجل البحر
والشجر والسمك والنهر والزهور والورد
والرياحين والأمهات والآباء والأطفال
والشباب والشيوخ والعاقلين والمجانين
والذين سيجنون في الأيام القادمة،
لأجل الحبالى واليتامى، لأجل كل ما
ذكرت وكل شيء أعمل لي معروفاً
وارحل.

المحطة الثالثة: حوار المقاعد الخالية

المقود(بفرح): ها قد تخلصنا من
السائق. ماذا يحمل كل مقعد من أسرار
وأخبار؟
مقعد بعيد: جلست عليّ حبلٍ وقالت
ليتي أرزق بابن يكر وأرسله إلى
المناطق.
مقعد مقابل: جلس علي والد وقال ليت

تحاكم، حكمت على عائلتي بالتمزق
والفرقة والضياع، وها أنت ستعود مساء
اليوم إلى عائلتك وتحلم ببلادك، ببلادك
هه، متى كان يحق لك ذلك الحلم؛ من
سمح لك بذلك، أنت مثل أهل المناطق
وأسوأ، لا تقل إن العيش بيننا غيرك، لا
شيء تغير، رأيك في التلفزيون تتظاهر
وتطالب بالدولة، بأية دولة تطالب،
ستقول بدولتي، دولة في المناطق ودولة
لنا، تحسن التقسيم، هل تظن أن ما
تفعله هو تقسيم كعكة بين اثنين، الأمر
سهل بالنسبة لك؛ أية مشاعر تكنها لنا،
أين ستبقي أنت بعد التقسيم، لن أكون
بذيئاً وأقول لك إنك تستطيع البقاء على
خازوق، هه، يناسبك، هل سأحمل
خوفي منك طيلة حياتي، هل ستظل
معى، ألن تحمل عني، لا تقل نتقاسم،
لن نتقاسم، ستذهب أنت وأفكارك إلى
الجحيم، في الجحيم متسع للجميع،
اتركونا نعيش بسلام، هل اعتدينا
عليكم، هل سرقنا لكم شيئاً، هل
شردناكم، هل سطونا على أملاككم،
هل قتلنا أبناءكم، هل سجنناكم، ماذا
فعلنا لكم، قل بحق الإله، أعرف ماذا
ستقول، مللتك، إياك أن تلمسني مرة،
تظنني جنت، أنت المجنون، إذا ما

ابني لا يذهب إلى المناطق .

المقاعد الأربعة المتقابلة : ليت المقاعد الأخرى رأت ما رأيناه اليوم وليتها سمعت ما سمعناه .

مقعد مجاور : بالفعل ، رأيت الخيار يسقط في الباص .

الأربعة : من غيرنا يعرف حقيقة الذي دار؟ من أحس مثلاً أحسننا؟ آه ، أيتها الآلام لتكفي عن تعذيب هذا الخيار البائس الذي فقد عقله وابنه ولم يبق له غير ما رأيناه . . .

مقعد آخر : ألا رافة أيتها الآلهة بابنك المصاب عاموس !

المقعد الذي كان يجلس عليه عاموس : مسكين عاموس . الله الحنون رزقه ابنين . البكر مات قبل عشرين سنة في حرب تحرير القدس . وبعد فترة طويلة رزق بالثاني على شهوة . كانت زوجته تطمئنه أنه لن يكون وحيداً حين تموت . السرطان تفشى في رئتيها ، آه ، لكم بكت حزناً على ابنها البكر الذي مات لأجل تراب البلاد المقدسة .

المقعد الذي كان يجلس عليه يوسي : يوسي قال لنيلي أكثر من مرة ، إن عاموس جن ، جن منذ طرد ابنه من البيت . يوسي نشأ في الجيش . أولاده يعرفون

الأمر العسكري ، والمتعلقة بالجنديّة كما يعرفون والديهما ، اللذين ربّيا أولادهما تربية عسكرية صارمة . يوسي يتمنى الذهاب ثانية إلى المناطق لإخضاع لهيب النار المستعرة هناك ، لكن العمر . . . يعلق دائماً أن الوطن والعمر يجب أن يتكافأ حتى يستطيع أن يقدم للوطن ما يجب تقديمه ، حتى لو كان ثمن ذلك حياته .

مقعد العربوش : استغرب العربوش ما حدث للخيار عاموس . هو أول من نهض ورفعته عن الأرض ، رقاً له دمعه ودمه . ناوله منديل الأبيض ، مسكين هذا العربوش الذي سمع الكلام الناشف من عاموس . ظل صامتاً طيلة الحوار بين الثلاثة . ما فاه بكلمة واحدة إلى أن استفزته نيلي ويوسي بكلماتهما القاسية كالصخر ظناً أنه لن يسمع ما يهتمان به . لكنه سمع كل ما دار ورد عليهما بحدة . يجب أن تكون مقاعد العرايش في مؤخرة الباص . يجب أن لا نختلط بهم . إنهم صامتون ، لكنهم يسمعون . هه ، هه ، كيف نعرفهم . بسيطة . قالها عاموس واضحة : عيونهم تدل عليهم . تستطيع أن تعرف العربوش من بين كل الناس . الخوف

عنا العرايش؟

مقعد العربوش: اطمئن يا أخي . .
لهفتك تثير مخاوفي. لنطمئن أولاً على ما
يحدث في المناطق. قرأت ما كان يدور في
رأس العربوش. سمعت ما خاطب
نفسه به: ذلك العربوش الذي يبدو
ساذجا زار القدس. وتأكد أن الحجارة
لن تختفي من الأرض وأن السنابل أكثر
مما نتصور. هل تفهم هذا؟! إنهم أبناء
جلدته. إنه موزع بين هنا وهناك. . لا
يريد الاعتراف إنه ما من فرق بين
الحدين المتداخلين. تتابه مشاعر
وأحاسيس غريبة. لقد ولدنا في هذا
العربوش المسكين شتى المشاعر
المتضاربة.

مقعد نبلي: باستطاعة العربوش الرحيل
للكويت. أليس كذلك؟ أمامه أكثر من
فرصة. أستغرب من العرايش الذين
يتدبرون معنا. أمامهم إمكانيات كثيرة
وفوتون فرص الرحيل النادرة.

مقعد عاموس: ما الذي آثارك يا نبلي في
هذا العربوش؟

مقعد نبلي: ليس هذا العربوش
بالذات. كل عربوش آخر.

مقعد يوسي: صحيح، لا فرق بين

الذي ولدناه في داخله يستطيع الكشف
عنه بواسطة عينيه. في عينيه لمعان يضيء
عربوشيته البشعة، نستطيع أن نخترع
ما كينة صغيرة يحملها كل واحد منا
لكشف العرايش. شغلة سهلة. ليست
بحاجة لأكثر من جهد عالم أو عالمين
يحققان لنا ما نريده لكشف العرايش.
آه، أيها العربوش، لماذا كنت أول من
يقف ويساعد عاموس على الوقوف؟ ما
الذي دفعك إلى ذلك؟ لماذا أحرجتني
قليلا وبدوت على غير ما تصورتك؟
تمنيت لحظة عدت إلى المقعد أن يمتليء
المقعد بالمسامير الكبيرة. آه، أيها
العربوش، لست ذكيا بما فيه الكفاية.
المقاعد الأخيرة في الباص وفي كل مكان
تناسبكم أكثر من أي شيء آخر في
الدنيا. . .

مقعد يوسي: أحسنت أيها المقعد
الزميل. كلامك درر. ومنطقك يغني
عن أي جدال ونقاش حول كل ما قلته.
لكن ازرع في قلبي الطمأنينة وقل لي هل
هناك إمكانية لإبعاد العرايش عنا؟ هل
هناك طريقة لكشفهم من أعينهم؟ ما
الذي تهجس به أيها المقعد العاقل؟
أستحلفك بأكبر مقعد في الدنيا أن تقول
لي ما يدور بينك وبين نفسك. متى يحل

شيئين لا يختلفان في الجوهر ولا في المظهر
حتى . .

مقعد عاموس : مصير عاموس كان مرا .
آه من الجنون ، كان يجب أن نعرف ماذا
يدور في رأس العربوش قبل أن نهش
عاموس بكلماتنا الجارحة وبأفعالنا
الصائبة . هل تعرفان ماذا كان يفكر
العربوش عندما كنتما تتناقشان حول
المناطق ؟

مقعد يوسي : كان يفكر ؟ !

مقعد عاموس : فكر بسخرية ، كالتالي ؛
باستطاعتكم سجن المشاغبين في المناطق
ببلاد خاصة بهم .

مقعد نيلي : ماذا يعني هذا ؟

مقعد عاموس (ضاحكا) : يعني
الانسحاب من المناطق .

مقعد يوسي : اللئيم .

مقعد نيلي : وأين سيذهب ابن الزانية ؟
لا تقل لي إنه سيقى هنا ؟ !

مقعد عاموس : سيظل ضيفا ثقيلا ظل .
المقاعد مجتمعة : لا ، وألف لا !

أحد المقاعد الأخيرة : سيقى هنا !

تخلق المقاعد مجتمعة بالمقعد
الوحيد . فينكمش المقعد الوحيد على
نفسه ويسود صمت ثقیل لا تقطعه إلا
كلمات غزل باردة تبادلها المقاعد مع
بعضها البعض .

(١٦ شباط ١٩٨٨)

طقوس عادية جداً

بقلم : محمد رجب

لن أكتب لساء سطرًا بعد اليوم كي
أضمن حقي في أن يكتب فوق القبر :
يحوي هذا عظم فلسطيني .

(عبد الحميد طقش)

المعبد الذي يتقاطع مع خط السكة
الحديد ثم إلى الطريق الترابي مرة أخرى
لتصل إلى المقبرة مع ظهور أول شعاع
لأشعة الشمس .

حكاية . . . طقوس أصبحت جزءاً من
المخيم فتلوث بلونه واصطبغ بصبغتها
حكاية تعودها الكبار وحدثوا بها

مع صيحات الديك الأولى معلنا
قدوم يوم جديد، كانت المرأة تنهض من
فراشها لتتوضأ وتصلي وتجلس بعدها
مسيحة مصلية على النبي وصحبه ورسله
ثم تزلف للحاكورة لتلتقط مما نضج من
ثمارها وتضعها في سلة صنعت من القش
وتذهب قبل بزوغ الشمس عابرة أزقة
المخيم إلى الطريق الترابي ثم إلى الطريق

وفي لحظات ما قبل الفجر . . . أفاق
العمال كعادتهم وآثار نعاس وبقايا
شهوات الليل في عيونهم . . . يستعدون
لرحلة العبودية اليومية داخل نقطة
(ايرز).

أفاق العمال ومعهم أهل المخيم جميعا
على صوت مكر الصوت مختلطا بنباح
كلاب ضالة (منوع التجوال حتى اشعار
آخر ومن يخرق هذا المنع يعرض نفسه
للخطر). وبدأ الحديث بأصوات تشبه
الهمس تحت السقوف الكرميدية
(والحاضر يعلم الغائب) فمن الناس من
عاد لفراشه وراحة اقتحمت قلبه ومنهم
من بدأ متوترا إلا تلك المرأة العادة التي
بدت وكأنها لم تسمع شيئا فبعد أن
توضأت وصلت نزلت للحاكورة وبدأت
ممارسة طقوسها اليومية.

وقبل بزوغ أول شعاع من أشعة
الشمس كانت المرأة تخرج من باب الدار
تحمل سلتها حاوية مالذ وطاب لابنها
هناك في المقبرة، كان صباحا عاديا ككل
صباح بالنسبة لها، التوقد في العينين
والطمأنينة تكسو تجاعيد الوجه الأسمر
فيبدو أكثر شبابا، متجهة إلى شرق

صغارهم، وصغار كبروا وحدثوها
لصغارهم وجاء مراسلو الصحف المحلية
والأجنبية التقطوا الصور للمرأة العادية
والمرأة الحكاية حاولوا أن يأخذوا أحاديث
صحافية منها وأن يعرفوا سبب عادتها
اليومية ولكنها لم تدل بأكثر من بضع
كلمات تبدو وكأنها تحفظها عن ظهر
قلب.

هل رأيت وجها يشع بفرح حزين؟ وهل
جربت حزنا فرحا؟ . . . هذا ما كتبه
صحفي محلي عندما تحدث عن تلك المرأة
فقال أن هذا المعنى ليرز بشدة على
تجاعيد ذلك الوجه، عندما تسألها عن
سر حكايتها. تلمع حبات دمع ماسية في
عينيهما وتقول بانفعال عادي وبصوت
يبدو هادئا «ما الغرابة في أن أزور ابني
وأخذ له ما نضج من ثمار حاكورتنا».
تتغير نبرة صوتها وتبدو وكأنها تكلم
نفسها. «عندما عادوا به محمولا . .
نظرت إلى ظله فرأيت أنه يمتد . . ويمتد
ليلتقي بالأفق، ونظرت إلى شقوق
جدران البيت فرأيتها تذوب وتتلاشى . .
ونظرت إلى أشجار حاكورتنا فرأيتها
تخضر وتثمر . . هل يستحق إذن أن
أهديه بعض ثمارها؟؟؟!

القش على الأرض، ونز الدم حارا لزجا
حفر، رسم خارطة للوطن، وعصافير
الجنة طافت مغردة تزف العروس إلى
عريسها، كانت المرأة تفتح عينيها بهدوء
وابتسامة تستقر على شفيتها، وظلت
الابتسامة عالقة حتى بعد أن لفوا الجسد
الجاف بقماش أبيض وواروه التراب.

المخيم تستقر هناك عصافير الجنة تنعم
بخيراتها وتنتظر الخيرات التي تجلبها المرأة
العادة.

مادت الأرض تحت أقدامها، ترنحت
المرأة حاولت أن تمسك نفسها ولكن
الجسد الجاف ارتطم بالأرض محدثا صوتا
اختلط بأزيز الطلقة وصرير تدحرج سلة

